البحث السابع عشر

النظم الإسلامية
مفهومها وأسسها
في ضوء الثقافة الإسلامية

إعداد الدكتور

إبراهيم منصور أحمد منصور

المدرس بقسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

جامعة الأزهر

□

النظم الإسلامية: مفهومها وأسسها في ضوء الثقافة الإسلامية

إبراهيم منصور أحمد منصور
قسم الثقافة الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر
البريد الالكتروني: IbrahimMansour١٣٣@azhar.edu.eg

الملخص:

اهتم الإسلام بتغطية الأنشطة المتنوعة للبشر وتلبية حاجاتهم إلى نظام يقيم شؤونهم، فجاءت أنظمته شاملة تلبى حاجة الإنسان في المجالات المختلفة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها، ومن هنا يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على النظم الإسلامية المتنوعة، والتأكيد على مقاصد النظم الإسلامية وبيان المفاهيم والأصول التي يرتكز عليها كل نوع من أنواع النظم الإسلامية؛ لتيسير الانسجام مع مبادئ الإسلام وتشريعاته، وافتتح البحث بالتعريج على ضرورة النظام للمجتمع، والعلاقة بين النظم الإسلامية وغيرها من العلوم، وصلتها بالتشريع الإسلامي، وأهداف النظم الإسلامية، مع الإشارة إلى خصائص النظم الإسلامية، وصلة هذه الخصائص بالسمات العامة للتشريع الإسلامي وتميزه عن غيره من النظم الوضعية، وقد استفاض البحث في تصنيف النظم الإسلامية والتعريف بكل نوع منها، فتعرض للنظام الاجتماعي وأسسه ثم النظام الاقتصادي وأسسه وأهدافه في المجتمع، وكذلك النظام السياسي وأسسه والنظام الأخلاقي وأسسه وصلته بشتى أنواع النظم الأخرى، واختتم ببيان النظام التربوي الإسلامي وأهدافه والفرق بين التربية والتعليم، وأساليب التربية في المنهج الإسلامي، ومراعاتها للفطرة الإنسانية والفروق الفردية، كما كشف البحث عن المفردات المعرفية التي يتضمنها كل نوع من أنواع النظم الإسلامية؛ لتساهم في إرشاد المعنيين بوضع مقررات تدريسية في تخصص النظم الإسلامية، وتضمن أيضا المراجع المباشرة التي يستبصر بها المبتدئ في دراسته للنظم الإسلامية

والتي وردت في ثنايا البحث، وقد أسفر البحث عن ثراء وتنوع النظم الإسلامية؛ وذلك لاستقاء مادتها وحقائقها من مصادر الإسلام المتسمة بالشمول والتنوع، كما ظهرت . أيضا . مرونة النظم الإسلامية وقابليتها للتطبيق في شؤون المجتمع؛ كونها لا تقف عند آليات جامدة، بل تترك للمجتمع الإبداع في تطبيق تلك النظم وتحقيق أهدافها، كما تميزتِ النظم الإسلامية، مقارنة بغيرها، بالحافز الديني الذي يرتب الأجر والثواب على الالتزام بتلك النظم، والعقاب على الإخلال بها.

الكلمات المفتاحية: النظم الإسلامية، الإسلام، الثقافة، الأسس، الثقافة الإسلامية.

Islamic systems, their concept and foundations in light of Islamic culture

Ibrahim Mansour Ahmed Mansour
Department of Islamic Culture, Faculty of Islamic Da'wah in Cairo, Al-Azhar University, Egypt
E-mail: IbrahimMansour١٣٣@azhar.edu.eg

Abstract;

Islam was concerned with covering the diverse activities of human beings and meeting their needs for a system that would manage their affairs. Its systems were comprehensive and met human needs in various fields: social, economic, political, administrative, etc Hence, the research aims to shed light on the various Islamic systems, emphasize the objectives of the Islamic systems, and explain the concepts and principles on which each type of Islamic system is based. To facilitate harmony with the principles and legislation of Islam, the research began by highlighting the necessity of order for society, the relationship between Islamic systems and other sciences, and their connection to Islamic legislation, And the goals of Islamic systems, with reference to the characteristics of Islamic systems, and the connection of these characteristics to the general features of Islamic legislation and its distinction from other man-made systems. The research went into great detail in classifying Islamic systems and defining each type of them, so it presented the social system and its foundations, then the economic system, its foundations and its goals in society, As well as the political system and its foundations, the moral system and its foundations, and its connection to various other types of systems, and concluded with an explanation of the Islamic educational system and its goals, the difference between education and education, and the methods of education in the Islamic curriculum, and its consideration of human nature and individual differences. The

research also revealed the cognitive vocabulary that is included in each type of Islamic system. ; To contribute to guiding those concerned with developing teaching curricula in the specialty of Islamic systems, It also includes direct references that provide insight to the beginner in his study of Islamic systems, which were included in the research. The research has resulted in the richness and diversity of Islamic systems. This is because it derives its material and facts from the sources of Islam, which are characterized by comprehensiveness and diversity. It also demonstrated the flexibility of Islamic systems and their applicability to the affairs of society. Because it does not stop at rigid mechanisms, Rather, it leaves society to be creative in applying these systems and achieving their goals, just as Islamic systems are distinguished, compared to others, by the religious incentive that stipulates rewards for adhering to those systems, and punishment for violating them.

Keywords: Islamic systems, Islam, Culture, Foundations, Islamic culture.

□

مقـــدمة

الحمد لله الذي أتقن كل شيء خلقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمد رسول الله، اللهم صلّ عليه وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار وسلِّم تسليما كثيرا، وبعد.

فإن المجتمعات البشرية – على اتساع حركتها وتطورها – لا يمكنها العيش بدون نظام يجمع أشتاتها ويحدد أهدافها، ويبين طريقها وسيرها، ويوضح لها علاقتها بالأشياء من حولها.

ومن هنا، فقد هدف الإسلام إلى تلبية هذه الاحتياجات الفطرية، فشرع للناس ما يعمل على إيجاد مجتمع مسلم يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية، ويعمر الأرض بمنهج الله ﷻ.

وإذا كانت أنشطة الناس متنوعة، فإن الإسلام قد اهتم بتغطية هذه الأنشطة المتنوعة، فجاءت أنظمته شاملة تلبى حاجة الإنسان في المجالات المختلفة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية... وغيرها.

وقد حاولت في هذا البحث إلقاء الضوء على النظم الإسلامية المتنوعة، كمدخل يكشف عن قضاياها ومسائلها وما يتعلق بها، فجاء البحث في تمهيد ومبحثين.

بيّنتُ في التمهيد ضرورة النظام للمجتمع، والعلاقة بين النظم الإسلامية وغيرها من العلوم.

ثم تناولت في المبحث الأول التعريفات والمفاهيم المتعلقة بالنظم الإسلامية، وتبعها المبحث الثاني مبيّنا أبرز أنواعِ النظم الإسلامية وأسسَها، في صورة موجزة، تعطي الإشارات، وتفتح الباب للمزيد من الدراسات والمذاكرات، وأتبعت ذلك كله بالمراجع التي يستبصر بها المبتدئ في دراسته للنظم الإسلامية والتي وردت في ثنايا البحث.

أولا: أهمية الموضوع وأسباب اختياره

في هذا الوقت – الذي تستعر فيه المذاهب والنظم التي ترمي الإسلام وثقافته بالجمود وتحاول تجريده من خصائصه وسماته، لتصل من ذلك كله إلى زعزعة ثقة المسلم بدينه وتراثه، وإقناعه بقصور الإسلام ونظمه عن مجاراة الواقع وتقديم الحلول الناجعة لقضاياه، – في ظل هذه التجاوزات – يمثل التعريف بالنظم الإسلامية وثرائها خطوة جادة في التصدي لتلك المحاولات اليائسة، كما أن التركيز على سرد الأصول التي تنطلق منها هذه النظم، هو لبنة في إفهام الجيل الصاعد حقيقة رسالته وسر تقدمه وإثبات وجوده في عالم ملئ بالترويج لثقافاتٍ ونظمٍ مبتورة الصلة بالقيم والمبادئ والمثل العليا التي ينشدها الإنسان السوي.

ثانيا: أهداف البحث

١- الكشف عن العلاقة بين النظم الإسلامية ومقاصدها.

٢- التبصير بعناية الإسلام بإقامة المجتمع الفاضل، الذي يحقق مقاصد الإسلام في حياته وإدارته.

٣- تبيان المفاهيم المتصلة بالنظم الإسلامية وأنواعها.

٤- التأكيد على مقاصد النظم الإسلامية وبيان الأصول التي يركن إليها كل نوع؛ لتيسير الانسجام مع مبادئ الإسلام وتشريعاته.

٥- بيان ثراء التراث الإسلامي – قديما وحديثا – وتجاوبه مع فهم حقيقة الإسلام وجمعه بين الثبات والمرونة في تطبيق نظمه.

٦- تفعيل ارتباط المجتمع المسلم بثقافته وهويته، في عصر يعج بالتحارب الثقافي ومحاولة فرض المذاهب والأهواء على الشباب المعاصر.

٧- الإسهام في تقديم معرفة ميسرة تجذب القارئ لتكوين صورة إيجابية عن تراثه ودينه الذي ينتمي إليه.

ثالثا: تساؤلات البحث

يجيب البحث عن التساؤلات الآتية:

١- ما النظم؟ وما ضرورتها للمجتمع الإنساني؟

٢- إلى كم قسمٍ تتنوع النظم الإسلامية؟

٣- ما العلاقة بين النظم الإسلامية والشريعة الإسلامية؟

٤- ما المقاصد التي تسعى النظم الإسلامية إلى تحقيقها في المجتمع؟

٥- ما الأصول التي يرتكز عليها كل نظام من النظم الإسلامية المتنوعة؟

رابعا: الدراسات السابقة

تنوعت الرسائل التي اتخذت من النظم الإسلامية مجالا للبحث والدراسة، ومن هذه الرسائل:

١- النظم الإسلامية في فكر الدكتور وهبة الزحيلي دراسة تحليلية، للباحث/ مدحت عبدالله إمام عليان، رسالة ماجستير في كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة عام ٢٠١٨م.

وقد عرَّفت الرسالة بشخصية الدكتور وهبة الزحيلي وحياته، ثم تناولت بالتحليل موقف الدكتور الزحيلي من النظام الاجتماعي، حيث حديثه عن حقوق الفرد ومشكلاته، وكذلك القضايا المتصلة بالأسرة والمجتمع، ثم انتقلت لبيان موقفه من قضايا النظام الاقتصادي، حيث تناولت معالمه، ومقومات نجاحه، والمصارف الإسلامية، وفلسفة النظم الاقتصادية غير الإسلامية، كل ذلك من وجهة نظر الشيخ.

كما تعرضت الرسالة لبعض قضايا النظام التشريعي مثل: الاجتهاد، وتقنين التشريع الإسلامي، وتجديد الفقه في العصر الحاضر.

٢- الإعجاز التشريعي في النظم الإسلامية وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، للباحث/ رياض السيد السيد عاشور، رسالة دكتوراة عام ٢٠٠٠م.

وقد بينتِ الرسالةُ الخصائص العامة للنظم الإسلامية – عموما .، كما أفردت الحديث عن الإعجاز التشريعي في النظم الإسلامية، حيث تناولت النظام الاجتماعي

ونظام الأسرة، وما فيها من تشريعات تتصل ببنائها كالزواج والطلاق والميراث، والنظام المالي، والإعجاز التشريعي في جانب العقوبات، والشبهات المثارة حول تلك العقوبات، كما أفرد الحديث عن الشورى في الإسلام ووجه الإعجاز التشريعي فيها، وفي الختام، ذكر الباحث أثر الإعجاز التشريعي في الدعوة الإسلامية.

ومن خلال ما سبق عرضه يظهر أن الدراسات السابقة تعنى بالكشف عن النظم الإسلامية بطريقة مستفيضة في نظام بعينه، أو مرتبط بفكر عالم من العلماء، وهو ما يختلف عن الهدف والمنطلق من هذا البحث الذي يعنى بإعطاء تصور شامل يكشف عن حقيقة النظم في الثقافة الإسلامية وغاياتها وأسسها التي لا تنفك عنها.

خامسا: منهج البحث

يعتمد البحث على منهجين أساسين:

١- **المنهج الاستقرائي:** وهو المنهج الذي (ينتقل فيه الباحث من الجزء إلى الكل، ومن الشواهد الجزئية إلى الحكم الكلي، ويسير فيه الباحث متدرجًا في التعميم، حتى يصل إلى حكم عام)[١] وعن طريق هذا المنهج أتتبع مصادر النظم للتوصل إلى قواعد عامة تتناول النظام مع التعريج على الجزئيات وصياغتها في صورة كلية، تجمع ما تناثر تحت كل نوع من أنواع النظم.

٢- **المنهج التحليلي:** وهو (منهج يقوم على دراسة الإشكاليات العلمية المختلفة تفكيكًا، أو تركيبًا أو تقويمًا)[٢] ويظهر هذا المنهج عند دراسة العلاقة بين النظم المتنوعة وأصولها التي ترتكز عليها.

سادسا: خطة البحث

---

١) البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه، د/ ذوقان عبيدات، وآخرون، ص٤٨، دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط. ثانية ١٩٩٩م.

(٢) أبجديات البحث في العلوم الشرعية، د/ فريد الأنصاري، ص٩٦، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط.أولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

انتظم البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة ثم فهرست للمراجع ومحتويات البحث، على النحو الموضح:

المقدمة، متضمنة العناصر آنفة البيان.

التمهيد، وفيه نقطتان:

أولا: حاجة المجتمعات الإنسانية إلى النظم

ثانيا: علاقة النظم الإسلامية بغيرها من العلوم.

المبحث الأول: تحديد المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالنظم الإسلامية

المطلب الأول: تعريف النظم الإسلامية وعلاقتها بالتشريع الإسلامي.

المطلب الثاني: أهداف النظم الإسلامية.

المطلب الثالث: خصائص النظم الإسلامية.

المبحث الثاني: أبرز أنواع النظم الإسلامية وأسسها.

مدخل.

المطلب الأول: النظام الاجتماعي وأسسه.

المطلب الثاني: النظام الاقتصادي وأسسه.

المطلب الثالث: النظام السياسي وأسسه.

المطلب الرابع: النظام الأخلاقي وأسسه.

المطلب الخامس: النظام التربوي الإسلامي.

ثم قائمة المصادر والمراجع، واختتم بالفهرس.

وأسأل الله ﷻ أن يلهمنا التوفيق والسداد في أفعالنا، والتبصُّرَ والمعونة في خدمة ديننا وأمتنا، على الوجه الذي يُرْضيه عنا، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

التمهيد: حاجة المجتمعات الإنسانية إلى النظم

من السنن الاجتماعية التي تحكم قانون الأحياء في هذا الكون، أن أفراد المجتمع لا يستطيعون الحياة بدون رابطة تجمعهم، وإلا لم ينتظموا في سلك واحد، بحيث يُطلق عليهم التسمية بـ(مجتمع)

ذلك أنَّ مادة (جَمَعَ) تدلُّ على الكثرة، فاجتماع أكثر من واحدٍ في مكانٍ ما، يُطلَق عليه (جَمْع)، وعليه فإن المجتمع – حسب الدلالة اللغوية – هو اسم للمكان الذي يجتمع فيه الناس أو وصف لعدد من الأشخاص.

وقد جاء في المعجم الفلسفي أن المجتمع هو: (مجموعة أفراد تربطهم علاقات منظمة، وخدمات متبادلة، وتسودهم روح عامة، وتقاليد مشتركة يخضعون لها، فللمجتمع سلطان على أفراده كالأسرة والأمة)(١).

وطبيعة الناس أنهم متفاوتون في الحكم على الأشياء وتقدير مدى نفعها وضررها، ومن هنا احتاج الإنسان إلى تشريعات ونظم تحدد علاقته بمَن حوله وما حوله من الأشياء وحدود تصرفاته؛ حتى تستقيم له حياته في المجتمع الذي يسكنه وينتفع بما فيه.

إذاً، السمة الغالبة على التجمع الإنساني هي وجود علاقات وقواعد منظمة له، بل لا يُتصور سير حياة الناس في تلك المجتمعات وفق الأهداف العامة لهذا المجتمع، إلا في ضوء تلك القواعد والإرشادات؛ حيث (تفيد الدراسات الإنسانية أن الجنس البشري لابد لاطراده، والمحافظة على كيانه واستقراره من نظام يحكمه، وقانون يسير على هديه، يوجهه إلى الطريق السوي، وينأى به عن التردي في الهلاك أو الوقوع في

(١) المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية– جمهورية مصر العربية، ص١٧١، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

حبائل الأهواء والنزاعات، وإذا تخلى المجتمع الإنساني عن الأخذ بنظام يسلكه، وقانون يحكم تصرفاته، فإنه يغدو – والحال كهذه – كقطيع من الحيوانات، يأكل كبيرها صغيرها، ويسلب قويها حقوق ضعيفها).[1]

لكن، مَن الذي يحدد هذه المبادئ والقواعد المنظمة لسلوك الإنسان، وعلاقته بالكون والناس بل وعلاقته بخالقه – قبل كل شيء – ؟

لقد اجتهدت المجتمعات الإنسانية – على امتداد تاريخها – في وضع مجموعةٍ من النظم التي تحقق لها أهدافها في المجالات المختلفة، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية – فنجحت أحيانا، وأخفقت في أحايين كثيرة في تحقيق الاستقرار، وأداء مهمة الخَلْق والوجود في هذا الكون.

ولك أن تدرك – أيها القارئ – أن الصانع الذي يصنع شيئا – ولو صغيرا – يُرفق معه نشرة، تبين كيفية استخدامه، ووظائفه التي يؤديها، وكيف يحافظ المستخدم على هذا الجهاز؛ ليؤدي مهامه ووظائفه التي صُنِع من أجلها، والإنسان هو صنعة الله ﷻ، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكرَّمه وفضلَّه على سائر مخلوقاته، فلم يتركه بلا منهج ينظم له حياته، ويبين مهمته ووظائفه التي يجب أن يقوم بها.

ومن هنا كانت الحاجة إلى النظم الإسلامية التي تحكم حياة المسلمين في المجالات المختلفة؛ حيث إن المجتمع الإسلامي له فلسفته الخاصة ورؤيته المرتبطة بالإسلام ومبادئه، فهو محكوم بهذه القواعد والأصول التي تحقق غاية وجوده في هذه الأرض.

والنظم الإسلامية تضع في اعتبارها أن المجتمعات الإنسانية ليست على درجة واحدة في تصنيفها وهويتها، حيث تختلف باعتبار السمة البارزة التي يضاف إليها هذا المجتمع، فمنها ما يضاف إلى جنس أو عِرق، فيقال "المجتمع الهندي أو الصيني"

(١) أضواء حول الثقافة الإسلامية، د/ أحمد عبد الرحيم السايح، ص٤٨، الدار المصرية اللبنانية، ط. أولى ١٩٩٣م، نقلا عن: النظم الإنسانية، أبو ذكري ص٦٠.

ومنها ما يضاف إلى موقع ومكان فيقال "المجتمع الشرقي أو الغربي" وبهذا الوصف يضم أماكن متعددة بل وربما متباينة في ثقافتها واتجاهاتها.

ومع هذا كله، فنظم الإسلام لها رؤية متميزة تتعامل عن طريقها مع كافة المجتمعات الإنسانية، مهما كانت الهوية التي تنتسب إليها تلك المجتمعات.

فالمجتمع الإنساني بأكمله ينظر إليه النظام الإسلامي على أساس وحدة الأصل في النشأة، والتنوع والاختلاف في المقاصد والأهداف، وذلك لحِكَم جليلة أرادها المولى تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]

علاقة النظم الإسلامية بغيرها من العلوم

تحتل النظم الإسلامية مكانة مهمة بين العلوم الشرعية المفسرة والخادمة للتراث الإسلامي؛ إذ هي الجانب الفعلي والحركي الذي يهتم مباشرة بتنظيم المجتمع الإسلامي، على كافة المستويات والعلاقات، فينظم علاقة الأفراد ببعضهم، وعلاقة الأسر فيما بينها، ومن ثَمّ علاقتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه وينضوون تحت لوائه.

ونظرا لهذه المكانة، تم تصنيف النظم الإسلامية كمجال من مجالات علم "الثقافة الإسلامية" حيث يشتمل هذا العلم على: القيم والنظم والفكر ونقد التراث الإنساني.

ومن أشهر التعريفات التي بيَّنت معنى الثقافة الإسلامية أنها (العلم بمنهاج الإسلام الشمولي في القيم والنظم والفكر ونقد التراث الإنساني فيها)[1]

فالمعرفة الشاملة لما يحتويه الإسلام من مبادئ وقواعد تتصل بالقيم والنظم والأفكار والتعامل مع التراث الإنساني بأكمله، كل هذه التخصصات داخلة تحت علم "الثقافة الإسلامية".

---

(١) الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، د/ عبد الله إبراهيم الطريقي، د/ عبد الرحمن الزنيدي وآخرون، ص١٣، كلية الشريعة، الرياض، ط. أولى ١٤١٧هـ.

المبحث الأول: تحديد المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالنظم الإسلامية

المطلب الأول: تعريف النظم الإسلامية وعلاقتها بالتشريع الإسلامي

أولا: تعريف النظم في اللغة:

غاية التعريف اللغوي لأي كلمة أن يحدد مساراتها ويوجد علاقة بين الأصل وما يترتب عليه من معان اصطلاحية، بحيث لا يوجد انفصال بين المعنى في اللغة والاصطلاح.

وعند استقراء معاجم اللغة العربية يتبين أن (النظام) تدور معانيه حول: التأليف والترتيب والجمع والاتساق والاستقامة على الشيء.(١)

ومما ينبغي أن نتنبه له، فيما يتعلق بمفهوم "النظام" في اللغة، (أن مدلول النظم في اللغة يتسع نطاقه ليشمل الأمور المادية والمعنوية، كما يتسع نطاقه ليشمل كل ما يتعلق بحياة الإنسان في الزمان والمكان، وذلك مثل تنظيم أوقات العمل والراحة والتزاور، وما إلى ذلك مما يتعلق بالزمان، ومثل تنظيم البناء للسكن، وشق الترع واستصلاح مناطق للزراعة).(٢)

ثانيا: تعريف النظم في الاصطلاح:

تتعدد تعريفات "النظم" حسب طبيعة المجال الذي يتناولها، فعلماء الاجتماع، ينظرون إليها من ناحية كونها أساسا للتجمع البشري، أو أنها سبب لتمييز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات، وهذا في الإطار العام المجرد للنظم عن إضافتها إلى حقل

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، شمس الدين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، ج٥ ص٤٤٣، دار الفكر. بيروت ١٩٩٧م، لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ج١٢، ص٥٧٨، دار صادر بيروت، ط. أولى. د.ت

(٢) نظرات في نظم الإسلام وثقافته، د/ مصطفى أحمد أبو سمك، ص٨، المؤسسة العربية الحديثة، د.ت.

معين أو اختصاصها بثقافة معينة.

فقد عرفها د/ علي عبد الواحد وافي بأنها: (القواعد والاتجاهات العامة التي يشترك في اتباعها أفراد مجتمعٍ ما، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم العامة وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض، وتربطهم بغيرهم).[١]

كما جاء في تعريفها – أيضا – بأنها: (عبارة عن القواعد أو المبادئ التي تَجمع ما يرسم للناس منهاج وطريقة حياتهم، وتهديهم أو توجههم إلى ما ينبغي أن يسيروا عليه في كل شئونهم، ويقيموا على أساسه جميع سلوكهم وكل تصرفاتهم).[٢]

وعند النظر إلى مكونات أي "نظام" باعتباره يضم أنواعا متعددة، تهيئ للمجتمع الاطراد والانتظام في طريق ثابت، نجد من يعرف "النظام" في الاصطلاح – انطلاقا من هذه الرؤية – بأنه: " مجموعة القواعد والأحكام المترتبة والمتفاعلة فيما بينها، فنظام أي دولة مثلاً يتكون من مجموعات القوانين والمبادئ والتقاليد التي تقوم عليها تلك الدولة"[٣] وهذه التعريفات – في مجملها – متكاملة ومترابطة.

ثالثا: تعريف النظم الإسلامية

لم يظهر هذا المصطلح إلا في فترة متأخرة من تاريخ العلوم الإسلامية؛ ليأخذ مكانه بين العلوم التي يتطلبها الواقع وما فيه من أحكام ونوازل ومستجدات، اقتضت تمايز النظام الإسلامي ووضع قواعده ومبادئه، وهذا ما قرره الدكتور مصطفى كمال وصفي قائلا: (لم يحدد فقهاء الإسلام وصفا اصطلاحيا للنظام الإسلامي، ولم يحددوا

---

(١) علم الاجتماع، د/ علي عبد الواحد وافي، ص٥١

(٢) مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، ص١٢ بتصرف يسير، دار النداء، تركيا، ط. أولى ٢٠١٤م.

(٣) الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، ص٢٧٣، نقلا عن: نظرات في الثقافة الإسلامية، عز الدين الخطيب التميمي وآخرون، ص١١٩، دار الفرقان، الأردن، ط. أولى ١٩٨٤م.

خصائصه الأساسية، فقد كانوا في غنًى عن ذلك، إلا أن ضرورات الثقافة الإسلامية المعاصرة تقتضى هذا التحديد، لِما يرتبط به من المقارنة بالنظم الحالية، ومعرفة وضعها من النظام الإسلامي).[١]

وحتى لا يُتهم التراث الفكري للأمة الإسلامية بخلوه – أو عجزه – عن تقرير الأسس التي يرتكز عليها المجتمع في شتى مجالاته، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، قام المتخصصون بوضع تعريفات للنظم الإسلامية ومنها: (القواعد والمبادئ والعادات التي تقوم عليها الحياة في ظل الإسلام، عقيدة وشريعة وخُلُقا، والتي تحدد للإنسان حركة نشاطه في كافة المجالات ومختلف العلاقات).[٢]

ومهما تعددت التعريفات وتنوعت، فإن المشتغلين بالنظم الإسلامية (يتفقون على أنها يراد بها القوانين أو التشريعات أو الأحكام، والمناهج، والمبادئ والتعاليم والقواعد، والأُطر، والأسس، والتقاليد والأعراف ... التي وضعها الإسلام، أو التي استقاها وأخذها المتخصصون منه، وذلك لتنظيم وإقامة حياة المجتمع المسلم – فردا كان أو جماعة، في شتى الأمور – على أساسها)[٣]

وغاية ما يمكن أن توصف به التعريفات التي تناولت مفهوم النظم الإسلامية، أنها تحاول إبراز الصلة الوثيقة بين تلك المبادئ والقواعد العامة المنظمة لسلوكيات المجتمع وأفراده والعلاقات الداخلية والخارجية فيه، وبين استمدادها وأصلها النابع من الإسلام، بكافة تشريعاته.

وفي إظهار هذه الصلة الوثيقة والارتباط المباشر للنظم بأصلها ومنبعها وأساسها الذي تستقى منه، تمييز للنظم الإسلامية عن غيرها من النظم الوضعية المبتوتة الصلة

(١) مصنفة النظم الإسلامية الدستورية والدولية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، د/ مصطفى كمال وصفي، ص١٩ مكتبة وهبة، القاهرة، ط. أولى ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

(٢) نظرات في نظم الإسلام وثقافته، د/ مصطفى أحمد أبو سمك، ص١٠، مرجع سابق.

(٣) مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، ص١٥، مرجع سابق.

بالوحي وما فيه من تعاليم هادية للبشر ومنظِّمة لسلوكهم وحياتهم.

وفي ضوء ما سبق فإن المقصود بعنوان البحث: الكشف عن معاني النظم الإسلامية والأسس التي تنطلق منها لتحقيق أهدافها في المجتمع، وذلك من منظور الدراسات التي تناولت تخصص الثقافة الإسلامية – والنظم أحد مجالاتها – في القيم والنظم والفكر ونقد التراث الإنساني.

رابعًا: العلاقة بين النظم الإسلامية والتشريع الإسلامي

إن فكرة النظم الإسلامية إنما تهدف إلى توضيح فلسفة الإسلام ورؤيته الجامعة المتكاملة، في شتى المجالات المختلفة؛ حيث ترتكز في تكوين مبادئها وقواعدها على التشريع الإسلامي، كما تعمل على تحقيق مقاصده، كذلك تستقي خصائصها وتميزها من خصائص التشريع الإسلامي؛ إذ أنه بمثابة الأصل لها.

وعلى هذا فـ(إن موضوع التشريع هو سن القوانين واستمدادها من الأدلة المعتبرة شرعاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس، أو الأدلة التبعية كالاستحسان أو الاستصحاب أو العرف، أما موضوع نظام الإسلام، فهو الإسلام بجميع مكوناته من عقيدة وأخلاق وعبادة ومعاملات بجميع فروعها الشاملة لجميع الأحكام العملية، سوى العبادات، كأحكام الأحوال الشخصية، والأحكام المالية، والقضائية والجنائية والدستورية والدولية، باعتبارها وحدة متكاملة متجانسة مترابطة الأجزاء، ومَن تمثَّلَها ظهرت عليه ملامح الشخصية الإسلامية التي تميزه عن الأشخاص الآخرين الذين يخضعون لنظم أخرى، وعليه فإن دلالة نظام الإسلام أعم وأشمل من دلالة التشريع أو الشريعة بمعناها الخاص).[1]

كما تعتبر النظم الإسلامية بمثابة آليات ووسائل متجددة، تعمل على إيجاد المجتمع المسلم المتفاعل مع الواقع والمجتمعات من حوله، وذلك عن طريق ربط هذه الفاعلية بأسس ومقاصد التشريع الإسلامي.

---

(١) الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، د/ محمد أبو يحي وآخرون، ص٢٧٥، نقلا عن: نظام الإسلام، محمود السرطاوي ورفاقه، ص١٣

المطلب الثاني: أهداف النظم الإسلامية

تعتبر النظم في مجملها جزءا من نظام الإسلام العام، فهي لا تعدوا أن تكون متحدة في تحقيق أهداف الإسلام في المجتمع، ولذلك يشكل كل واحد منها تركيزا على جوانب محددة لإيجادها في المجتمع، ومن ثم يتكامل الإسلام كنظام يُحكم به الناس في حياتهم.

ولذلك، فإن النظم الإسلامية تستهدف تحقيق مجموعة من الغايات التي تنشدها بالنسبة للمجتمع الإنساني ككل، والمجتمع الإسلامي، ابتداءً؛ إذ أن المنتفع بثمار هذه النظم هو مَن يقوم بتطبيقها وتفعيلها في حياته.

كما أن دراسة وتعلُّم تلك النظم لها أبعاد معرفية تبغي تحقيقها، ولذلك أتناول هذين البُعدين لأهداف النظم الإسلامية، على النحو التالي:

أولا: أهداف النظم الإسلامية في المجتمع

تهدف النظم الإسلامية على اختلاف أنواعها ومجالاتها إلى تحقيق غايتين أساسيتين، وهما:(١)

١- تحقيق إنسانية الإنسان.

٢- جلب المصالح للإنسان ودرء المفاسد عنه.

وكما ذكرت آنفا، أن هناك صلة وثيقة بين النظم الإسلامية، والشريعة الإسلامية، فغاية النظم أن تحقق مقاصد الشريعة، تلك المقاصد التي تتسم في مجملها بتحقيق كرامة الإنسان، وحمايته وجلب المصالح له، ودرء المفاسد عنه.

ولذلك، فإن تفصيل هاتين القاعدتين، يضطرنا إلى أن نستقي ما ذكره علماء الشريعة والأصوليون المتخصصون، في محاولة للربط بين ما تحققه الشريعة وما

---

(١) أضواء على النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، د/ عبد الرحمن أبو عامر الحماحمي، ص٣٥، مكتبة الإيمان، ط. ثالثة ٢٠٠٨م. نقلا عن: النظم الإسلامية والمذاهب المعاصرة، ص٤١

تبتغيه النظم باعتبارها وسائل لتحقيق تلك المقاصد.

لقد استقرأ علماء الشريعة المصالح المرتبطة بالإنسان، والتي جاءت الشريعة لإيجادها والحفاظ عليها، فصنفوها إلى ثلاثة أقسام [مصالح ضرورية، ومصالح حاجيّة، ومصالح تحسينية].

يقول الإمام الشاطبي في بيانه لتلك المصالح: (تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخَلْق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثةَ أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، والثاني أن تكون حاجيّة، والثالث أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا ، بحيث إذا فُقدت لم تجْرِ مصالحُ الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة. وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين.

والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما، ما يقيم أركانها ويثبّت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود، كالإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبه ذلك ... والجنايات ما كان عائدا على ما تقدم بالإبطال فشُرع فيها ما يدرأ ذلك الإبطال ويتلافى تلك المصالح، كالقصاص والديات للنفس، والحد للعقل ... وما أشبه ذلك.

ومجموع الضروريات خمسة وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة.

وأما الحاجيّات فمعناها أنها مُفتقَر إليها من حيث التوسعة، ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تُراعَ، دخل على المكلفين الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة.

وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات والجنايات.

ففي العبادات كالرخص المخففة بالنسبة إلى لحوق المشقة بالمرض والسفر، وفي العادات كإباحة الصيد، وفي المعاملات كالقِراض والمساقاة، وفي الجنايات كتضمين الصنّاع وما أشبه ذلك.

وأما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنَّسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق كالطهارات كلها، وستر العورة وأخذ الزينة وآداب الأكل والشرب، وما يماثلها).[١]

ولعل السر في أن الشريعة الإسلامية كفلت للناس هذه المصالح، وإن كانت متفاوتة، (لأن كل فرد أو مجتمع تتكون مصلحته من أمور ضرورية وأمور حاجيّة وأمور كمالية، مثلا: الضروريّ لسكنى الإنسان، مأوًى يقيه حرّ الشمس وزمهرير البرد، ولو مغارة في جبل، والحاجيّ أن يكون المسكن مما تسهل فيه السكنى بأن تكون له نوافذ تفتح وتغلق حسب الحاجة، والتحسيني أن يُجمّل ويؤثّث وتوفر فيه وسائل الراحة، فإذا توافر له ذلك فقد تحققت مصلحته في سكناه، وهكذا طعام الإنسان ولباسه وكل شأن من شؤون حياته، تتحقق مصلحته فيه بتوافر هذه الأنواع الثلاثة له، ومثل الفردِ المجتمعُ، فإذا توافر لأفراده ما يكفل إيجاد وحفظ ضرورياتهم وحاجياتهم وتحسيناتهم؛ فقد تحقق لهم ما يكفل مصالحهم)[٢]

ومما تجدر الإشارة إليه، أن التوازن والتكامل في تحقيق هذه المصالح من شتى جوانبها وأبعاده أمر مهم ركزت عليه النظم الإسلامية، فهي (في قصدها تحقيق مصالح الإنسان، تراعي المصالح العامة والخاصة، ومصلحةَ الفرد والجماعة، دون

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، الإمام الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، ج٢ ص ٨ .١١، بتصرف واختصار، دار المعرفة، بيروت، تحقيق الشيخ: عبد الله دراز.

(٢) علم أصول الفقه . عبد الوهاب خلاف . ص ١٩٩ . مكتبة الدعوة الإسلامية، ط. ثامنة د.ت

جور على أيٍّ منهما، أو محاباةٍ لطرف على حساب الآخر، وفي هذا ولاشك مدعاة لحصول السعادة للجميع أفرادا وجماعات).[1]

ثانيا: الأهداف المعرفية لدراسة النظم الإسلامية

في هذا العصر المائج بالأحداث والاضطرابات الفكرية، والتنازع الفكري، في محاولاتٍ لأطياف فكرية متنوعة، تدَّعي التجديد الإسلامي، بل تربط أحيانا بين واقع المسلمين – وما فيه من اختلاف وتناحر فكري – والإسلامِ ونُظُمه، ومع اشتداد الهجوم على الإسلام وممثليه من المؤسسات العلمية والقيادية، تأتي أهمية دراسة النظم الإسلامية، وذلك لتحقيق الأهداف التالية:

١- تحديد مكانة النظم الإسلامية المتنوعة بين غيرها من العلوم الإسلامية؛ وبيان مدى الترابط بينها وبين سائر العلوم، استمدادا واستنتاجا، وذلك كله في إطار تحقيق التكامل بين العلوم الإسلامية.

٢- التقييم الصحيح لواقع المسلمين، الاجتماعي والفكري والاقتصادي ... بنظمه المتنوعة، وتحديد مواطن الضعف، في ضوء الأصول العامة والمبادئ الأساسية للنظم الإسلامية.

٣- الإلمام بقسط وافر من الجانب الحركي للإسلام في المجتمع، وإدراك شمولية الإسلام في شتى الجوانب المنظمة لعلاقة المجتمع المسلم بغيره من المجتمعات.

٤- بعث الثقة بالتراث الإسلامي والاسترشاد به في إطار المستجدات النازلة بالمجتمع، وتقدير إسهامات السابقين واجتهاداتهم، ووضعها في المنزلة اللائقة بها.

٥- المقارنة بين العطاء الفكري الإسلامي في مجال النظم الإسلامية، نظريا وعمليا، وبين النظم الوضعية وما أنتجته عبر تاريخ مجتمعاتها.

---

(١) مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، ص٤٥، مرجع سابق.

المطلب الثالث: خصائص النظم الإسلامية

سبق أن تناولنا الصلة الوثيقة بين النظم الإسلامية والتشريع الإسلامي، كما أن النظم بمثابة تصور شامل للإسلام وفلسفته في تنظيم المجتمع؛ ولذلك فهي (تجمع في مضامينها خلاصةَ التصور الإسلامي، وتفاصيلَ المنهج العملي الإسلامي لتصريف شؤون الناس وفق ما شرعه الله تعالى وارتضاه من الدين، وعلى هذا فإن خصائص النظم الإسلامية تستمد وترتبط بخصائص شريعة الإسلام، وذلك لكونها مأخوذة منها، وقائمة على أصولها.

ويُقصَد بالخصائص هنا: ما تتفرّد به شريعة الإسلام ونظمُها من صفات لا يشاركها فيها أيَّةُ شرائعَ أو نظمٍ أو قوانينَ في دنيا الناس).[1]

وقد ذكر الباحثون في مجال النظم الإسلامية، عدة خصائص تنفرد بها عن غيرها من سائر النظم الوضعية، ومن هذه الخصائص:

أولا: الربانية. ثانيا: الشمولية. ثالثا: العالمية. رابعا: الوسطية.

خامسا: الجمع بين الثبات والمرونة. سادسا: مراعاة الطبيعة الإنسانية.

سابعا: الجمع بين الجزاء الدنيوي والأخروي.[2]

ويمكننا إلقاء الضوء – في صورة مقتضبة – على هذه الخصائص، وذلك على النحو التالي:

أولاً: الربانية

ربانية النظم تعني أن ينبوعها واستمدادها مرتبط بالمبادئ والتشريعات المتضمنة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأكرم ﷺ، من وحي الله تعالى الذي أنزله على نبيه

(١) مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، ص١٤١ بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٢) راجع هذه الخصائص باستفاضة وتوسع في كتاب: مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/إسماعيل علي محمد، ص١٤٢. ٢١٠، مرجع سابق، وانظر كذلك: نظرات في نظم الإسلام وثقافته، د/ مصطفى أحمد أبو سمك، ص٢٦ – ٦٣.

الخاتم، وهذا يعني أن (المبادئ الكلية لنظم الإسلام وقواعدها العامة وجزئياتها الثابتة، هي وحي الله تعالى إلى خاتم رسله ﷺ باللفظ والمعنى، متمثلا ذلك في القرآن الكريم، أو بالمعنى فقط، متمثلاً ذلك في السنة النبوية الشريفة).[١]

وتظهر هذه الربانية في شتى أنواع النظم الإسلامية، مقارنة بغيرها من النظم الوضعية، فـ(كل تنظيم أو تشريع تنعكس صفة مصدره ومنبعه على أحكامه وقواعده، ولذلك لا توجد مبالغة في اتصاف تنظيم البشر بالعجز والقصور، كما لا توجد مبالغة في اتصاف تنظيم الخالق سبحانه وتعالي بالكمال والتمام والقوة.. إن الله سبحانه هو وحده المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص)[٢]

وبما أن النظم في مجملها ترتكز على التشريع الإسلامي وفلسفته وتحقيق المقاصد التي جاء بها، فلابد أن تتمايز عما يضعه البشر لأنفسهم من تشريعات وتصورات في ميادين الحياة، حيث إن ما يضعه البشر لا ينفك عن معاني الهوى والنقص والجهل، لأن هذه المعاني لاصقة بالبشر، ويستحيل تجردهم عنها كل التجرد، وبالتالي تظهر هذه النقائص في القوانين والنظم التي يصنعونها.

وهنا تنعكس آثار هذه الخصيصة على واقع المجتمعات، باعتبار ما تسير عليه من نظم، حيث (إن أيّ حضارة مهما بلغت من النظم وحَوَتْ من المبادئ والتشريعات؛ لا يمكن أن تملأ الفراغ الذي خلفه غياب تطبيق الشريعة الإسلامية اليوم... لأنه لا توجَد على وجه الأرض شريعة ربانية سوى شريعة الإسلام، وشتان بين نظمٍ مصدرُها شريعةٌ ربانية، من الوحي الإلهي الحكيم، ومن لدن عليم خبير بِفِطر البشر ونفوسهم، خلق الإنسان ويعلم ما فيه نفعه وضرره ونظمٍ بشريةٍ، مصدرُها الإنسان الذي هو عرضة

(١) نظرات في نظم الإسلام وثقافته، د/ مصطفى أحمد أبو سمك، ص٢٦، المؤسسة العربية الحديثة، د.ت.

(٢) السابق ص٢٧

للأغيار وخاضع للمؤثرات الداخلية والخارجية على الدوام، كما أنه واقع في كثير من الأحيان تحت تأثير الأهواء، أو النزعات الأنانية، أو مصالح طبقة اجتماعية على حساب طبقة أخرى، أو ضلالات الفكر ووساوس الشيطان، فضلا عن قصور علمه، بل وجهله حتى بنفسه التي بين جنبيه، ومحدودية علمه الذي يعتمد على الأسباب، فإذا وُجدت الأسباب وُجد، وإذا انتفت الأسباب انعدم)[1].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن خاصية الربانية بالنسبة للنظم الإسلامية، لا تعني عصمة ما أنتجه الفكر الإسلامي في مجالات النظم المختلفة، وإنما يُقصد بها ارتكازها في قواعدها ومبادئها وغاياتها على التشريع الذي هو وحي من الله، فما وافق الشرع في مسائله وتحقيق غايته وأهدافه، فهو من النظم الإسلامية، وما خالفها وعارض مقاصدها، فليس من الإسلام في شيء.

ثانيا: الشمولية

نظرا لثراء النظام الإسلامي بالتشريعات والقواعد التي تستهدف تحقيق مصالح الإنسان، فإنه اتسم بشموليته لكافة أنشطة الإنسان، وحركته، وعلاقته بالكون والحياة والأحياء، موضحا ومصححا لتلك الأنشطة وأهدافها.

ومعنى كون النظم الإسلامية تتسم بالشمولية،(أن هذه النظمَ جاءت مضامينها وتعاليمها شاملةً لكل مناحي الحياة، وجميعِ شئون الخَلْق الدنيوية والأخروية، فهي ليست أنظمةً مُنزويةً في ركن ضيق ومقصورةً عليه ، تتولى علاجه دون غيره ، كلا ؛ بل إنها تملك منهجا فذا لكل ما يتعلق بالإنسان والكون والحياة.

وكما أنها نظّمت علاقة الناس بربهم ؛ كذلك نظّمت علائقهم ببعضهم، من اقتصاد، وسياسة، واجتماع، وقضاء، وجنايات، وتعليم، وحرب، وسلام، وعلاقتَهم بالبيئة وما خلق

(١) مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، ص ١٦٨، ١٦٩

الله فيها من كائنات[١].

ومن الخطأ أن يدّعي نفر ممن انتسبوا للبحث والعلم[٢] أن هذه الشمولية تنفك عن سائر النظم، نظرا لتقدم الإنسان، وقدرته على إدارة شؤونه بنفسه، وسنّ التشريعات التي يرى فيها مصلحته، ومصلحة المجتمع الذي يسكنه، محاولين بهذا الخلط، حصْرَ الإسلام في دائرة ضيقة، تجعله مبتوت الصلة بأنشطة الإنسان وتوجهاته وأقواله وأفعاله.

والحق أن هذه الدعوى لا تثبت أمام التمحيص العلمي السليم، ومناهج البحث المنضبط، ومنشأ هذا الخطأ، أنهم اعتبروا الإسلام وتشريعاته، كغيره من الأديان، فطبقوا فلسفة الأديان الخالية من التشريعات على نظم الإسلام وتشريعاته، مستدلين بتاريخ ونصوص تلك الأديان، على ما في الإسلام، فأوردوا قول السيد المسيح (اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)[٣] مع أن الإسلام يعتبر قيصر وما يملكه والخلقَ جميعا، مِلْكا لله ﷻ.

وإن المتأمل في نصوص الشرع يجد أن أكثر آيات القرآن المجيد تنظم العلاقة بين الناس، وتبين لهم أحكام العقود والمعاملات، كل ذلك في صورة متكاملة تربط بين التعبد لله ﷻ، والقيام بهذه الأعمال.

ولأمر ما نجد ختام الآيات القرآنية التي تحوي هذه الأحكام وتلك المعاملات، تُخْتم بفواصل دالة على التذكير بعظمة الله وحكمته في تشريعاته، وعلمه بما تكنه النفوس والضمائر، في صورة تدفع المؤمن لامتثال الأمر والنهي، باعتباره عبادة يثاب على فعلها، ويعاقَب على تركها.

---

(١) السابق، ص١٥١

(٢) تظهر هذه الدعاوى في كتب المستشرقين، حيث تأثر بها نفر من أبناء الأمة المسلمة فروجوا لها وعملوا على نشرها.

(٣) إنجيل مرقس ١٢: ١٧

ومن الأمثلة الموضحة لما ذُكِر، في سورة البقرة، وهي من السور التي اشتملت على بيان أحكام الأسرة في الزواج والطلاق والعدة، ففي إطار بيان العلاقة الحميمة بين الزوج وزوجته، يقول تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

وعند الحديث عن الطلاق وما يُتوقع فيه من وقوع الظلم والحيف من أحد الأطراف على الطرف الآخر، يقول جل شأنه: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣١]

وفي ختام الآية التي تتحدث عن أحكام الرضاع، وما يؤثر عليه من انفصال الزوجين، يُذكّر الله الطرفين بعلمه ما تكنه النفوس، حتى لا يضمر أحدهما إلحاق الضرر بالآخر، مما يؤثر على المولود، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

وأطول آية في القرآن تتحدث عن المعاملات، وهي آية الدَّين، يختتمها المولى تبارك وتعالى بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وعقِب بيان أحكام المواريث، تنتهي الآيات بقوله تعالى:﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١] قال تعالى: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النساء: ١٢]

وهكذا تمتزج الأحكام الشرعية بالجانب العبادي، في صورة شمولية متكاملة، تغطي سائر جوانب النشاط الإنساني، ولذلك جاء هذا النظام في صور متكاملة فيما بينها، فهناك النظام الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي والتربوي... وما إلى

ذلك من الأنظمة.[١]

ثالثا: العالمية

من الأمور المسَلَّم بها في الإسلام، عالمية الرسالة الإسلامية، وكونها خاتم الرسالات، فلا رسالة بعدها ولا نبي بعد خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

والنبي ﷺ يبين هذا العموم، فعن جابر بن عبد الله ﷺ، أن النبي ﷺ قال «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِىَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[٢]

وإذا كانت الرسالة الإسلامية عالمية، فإن ذلك يستلزم عالمية التعاليم التي جاء بها الإسلام، والنظم الإسلامية جزء من هذه التعاليم، ترسم للناس جميعا طريق حياتهم، وما يحتاجونه في كل زمان ومكان.

وهذه العالمية التي تتميز بها النظم الإسلامية، لم تنبع من فراغ، (فهي تملك المقوّمات والخصائص التي تجعلها جديرة بهذه الخاصية؛ حيث تتسم بكونها ربانية، وواقعية، كما أنها تنطوي على رفع الحرج والمشقة، وملائمة للطبيعة الإنسانية، وتتسم بالوسطية، وتجمع بين الثبات، وغير هذا من المؤهّلات التي لا تتوافر لأي نظام أو مذهب

---

(١) يأتي مزيد بيان وتوضيح لأبرز أنواع النظم وأسسها في المبحث الثاني.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كتاب الحيض، باب: التيمم وقول الله تعالى (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) برقم٣٣٥ ج ١ ص ٧٤ دار طوق النجاة، بيروت، ط. أولى ١٤٢٢هـ.

أو نِحلة قائمة على وجه الأرض)[1].

فلم تأت أنظمة الإسلام لمجتمع دون آخر، بل جاءت بقواعد صالحة لكل زمان ومكان؛ وذلك لأنها من لدن حكيم خبير، يعلم ما يصلح عباده وصنعته، ومن ثَمَّ اشتملت على ما فيه نفع الإنسانية بأكملها.

وقد تجلّت هذه العالمية التي تصطبغ بها النظم الإسلامية، فأنشأت مجتمعا مسلما وسع شتى الأجناس والأمم، بل وجدت فيه الأمم غير المسلمة بغيتها، فتعايشت مع المجتمعات المسلمة وفي ظل نظمها، واحتكمت أحيانا لقواعد المجتمع.

كما أن هذه النظم عالمية في غايتها، فهي تبغي إيجاد المجتمع الإنساني المتنوع، والمتكامل في آن واحد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولو أردنا توضيح هذه العالمية التي استوعبت مختلف الأجناس في رحابها، وبيان بعض الآثار المترتبة عليها، فلنذكر المجتمع الأندلسي – كنموذج – ظهرت فيه قمة هذه الخصائص.

١- عالمية النظم الإسلامية في البلاد المفتوحة

لقد كان لالتزام المسلمين الفاتحين بدينهم وسماحته تجاه المخالفين، وتفاعل النظم الإسلامية داخل المجتمع الواحد، صدىً عميقا في نفوس أهل البلاد المفتوحة، وأثرا في عاداتهم وطباعهم، (وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في إسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين، قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كَثُر التصاهر بينهم، حتى إن " إزيدور" أحد سكان مدينة "بيجه" الذي شدد النكير على الفاتحين

(١) مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، ص١٦٧ بتصرف.

المسلمين، قد دوَّنَ مسألة زواج عبدالعزيز بن موسى " بن نصير"[١] من أرملة الملك لُزْريق دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا العمل.

هذا بجانب أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وفق رسوم الوثنيين "غير المُعَمَّدين" – يعني المسلمين – في أمور الطعام والشراب).[٢]

٢- الحفاظ على الموروثات الثقافية للأمم

ولقد وقف الفاتحون على تراث الأمم الجديدة، فقاموا بمهمتهم الجليلة، من حفاظ على هذا التراث واستيعابه وإضافة الجديد والمزيد له، خير قيام؛ فقدموا بذلك خدمة جليلة للإنسانية، هذا بالإضافة إلى (أنه بفتح العرب للعراق والشام ومصر، ضموا إلى دولتهم العديدَ من المراكز الثقافية العظيمة في الشرق الأوسط، وقد اعتنق الإسلامَ الكثيرون من حملة شعلات الحضارة السالفة، فبدأ بذلك اختمار ثقافي دام لعدة قرون، وقد عَرَف سكان هذه المنطقة من العالم حضارة المدن لآلاف من السنين، وهي حضارة تمتد جذورها إلى زمن السومريين والأكاديين وفراعنة مصر؛ فإذا بكل ما ارْتُؤى أنه ذو قيمة وينبغي بالتالي الحفاظ عليه من بين تجارب تلك الآلاف من السنين، قد أضحى الآن يُعَبَّر عنه بلسان عربي).[٣]

---

(١) عبد العزيز بن موسى بن نصير اللخمي، أمير فاتح، ولاه أبوه إمارة الأندلس، عند عودته إلى الشام سنة ٩٥هـ، فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها، وافتتح مدائن، وكان شجاعًا حازما، فاضلا في أخلاقه وسيرته، وقد مات مقتولًا ٩٧هـ/٧١٦م. راجع: الأعلام، للزركلي الدمشقي، ج٤، ص٢٨، ٢٩، م.س.

(٢) الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، السير توماس أرنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرَيْن، ص ١٢١، مكتبة النهضة المصرية، د.ت أو رقم طبعة.

(٣) فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مونتجومري وات، ترجمة حسين أحمد أمين، ص١٩، ٢٠، مكتبة مدبولي، ط. أولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وأما عن أبرز الصفات التي تبناها العرب المسلمون الفاتحون، فكان لها أعظم الأثر في نفوس أهل البلاد المفتوحة، أنهم (كانوا يتصفون بالفروسية المثالية، بالإضافة لتسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى هذا من الخِلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخرًا فتؤثر في نفوس الناس تأثيرًا لا تؤَثِّره الديانة.

ومن الوقائع الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال، أن والي قرطبة لما حاصر، مدينة طليطلة، سنة ١١٣٩م، التي كانت بيد النصارى، أرسلت إليه الملكة "بيرنجر" المتواجدة داخل المدينة، مَنْ بلَّغَه أنه لا يليق بفارس بطل شهم كريم أن يحاصر امرأة، فارتدَّ القائد العربي من فوره محيِّيًا الملكة).[١]

٣- الاندماج والانصهار بين السكان في تلك البلاد

لقد أثّر الفاتحون المسلمون أيما تأثير في هذه الأمم الجديدة، لدرجة أن هذا التأثير قد طال لغتها، فلم تتمالك اللغة الأصيلة لتلك البلاد البقاء أمام لغة الفاتحين، وفي ذلك يقول السير توماس أرنولد:(وفي الحق إن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط، حتى لقد أصبح من الضروري أن تُتَرجَم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليَسْهُل استعمالها على المسيحيين)[٢].

إن الأمة المسلمة الفاتحة لم تفرض دينها ولغتها وثقافتها على الآخرين، وإنما أدت أخلاقهم إلى الحب والتعلق بهؤلاء الفاتحين، فقد كانوا ملاذا لتلك الأمم التي عانت كثيرا قبل مجئ الفاتحين إليها؛ ليُخَلِّصوها من الظلم والبطش الذي حلَّ بهم.

---

(١) حضارة العرب، د/ غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص٢٧٨ بتصرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢م.

(٢) الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، السير توماس أرنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرَيْن، ص ١٢١

ولنا أن نتخيل مدى رضا تلك الشعوب في البلاد المفتوحة بسياسية وتسامح المسلمين، عن أن يعودوا مرة أخرى لحكامهم، في ذلك المشهد الذي رواه صاحب كتاب فتوح البلدان، فعندما (جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالُهم إليهم لوقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: شُغِلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لَوِلايتُكم وعدلُكم أَحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم.

ونهض اليهود فقالوا: والتوراةِ[1] لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن تُغلَب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد).[2]

ولو ذهبنا نستقصي آثار التسامح الذي اتسم به النظام الإسلامي وامتلأت به البلاد الجديدة التي فتحها المسلمون، لما وسعنا ذلك، ويمكننا القول بأن الإسلام – في ظل عالمية النظم التي اشتمل عليها – وعلى امتداد تاريخه، قد أعطى لغير المسلمين، ما لم تعطه لهم مذاهبهم المختلفة والمتنوعة داخل أديانهم.

رابعا: الوسطية

تراعي النظم الإسلامية الجانب الوسطي الذي لا يجنح إلى الإفراط ولا يميل إلى التفريط، وذلك في جميع أمورها التنظيمية، فهي تنهى عن الغلو والتفريط حتى ولو كان في جانب العبادات[3] كما أنها توازن بين المصالح العامة والخاصة.

---

(١) قَسَم بالتوراة.

(٢) فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، ص١٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ .

(٣) هناك نماذج ووقائع كثيرة في السنة النبوية تنهى عن هذا الغلو الزائد في العبادة، أو التفريط في أداء الحقوق سواء أكان حقا إلهيا أم في حق الناس أم في حق العبد نفسه، ومن ذلك: موقف

ومن وسطية هذه النظم، أنها تسعى إلى اندماج المجتمع، والتعامل معه بكل أطيافه، ليسعى الجميع لتحقيق عمارة الأرض.

ومن آثار هذه الوسطية أنها أنتجت المجتمع المسلم المتسامح في علاقته بالآخرين، ولذا سأتناول هذه الوسطية وذاك التسامح من خلال هذه النماذج الرائعة.

من مظاهر الوسطية: التعددية وقبول الآخر في المجتمع المسلم

إن التسامح الذي تمتع به المجتمع المسلم، لهو خير وسيلة أوجدت – ولا تزال – التعددية داخل المجتمع الواحد، الذي يسهم في بنائه عناصر شتى، متنوعة في الأديان والأجناس والتوجهات والرُّؤَى، وهذا التسامح قد أدى بالضرورة إلى التواصل والتفاعل، ومن ثَمَّ قبول الآخر، المختلف دينيا وحضاريا، بل ومذهبيا داخل الحضارة الواحدة والدين الواحد.

وعند تفَهُّم حقيقة التسامح الذي جاء الإسلام لإرسائه بين الأمم المختلفة، تكون قمة التعددية والتنوع داخل المجتمع الواحد، وبين المجتمعات الأخرى، وبقدر ما تحمل الحضارة من صفات التسامح يكون هناك مناخٌ واسعٌ للتعددية في شتى مجالاتها.

ولقد تجلَّت قمة التعددية والتنوع، وقبول الآخر في الحضارة الإسلامية – كأثر من آثار التسامح الديني – حيث (تفردت دار الإسلام من بين أوطان الحضارات ببقاء جميع الديانات السابقة على الإسلام فيها بعد ظهوره، وفي ظل دولته وحاكمية شريعته، مع ازدهار مدارس لاهوتها كلها، بل لقد تمتعت هذه الديانات كلها، في ظل الإسلام، بالتعددية التي حافظت على علاقاتها، والتي ضبطت وقَنَّنتْ هذه العلاقات السلمية لأول مرة في تاريخها، حيث طوى الإسلام نهائيا صفحة الحروب الدينية بين أتباع كل

الرهط الذين جاؤوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ، كذلك موقف سيدنا سلمان مع أبي الدرداء رضي الله عنهما.

الديانات، وكان هو المنظم لتعددية المذاهب داخل مختلف الديانات).[١]

وبشهادة واحد من أهل الحضارة الغربية[٢] الذين اعترفوا بمدى ما كان عليه المجتمع المسلم من قبول للآخر المخالف له في الدين، لدرجة الاستعانة به في مناصب الدولة الحيوية، يقول توماس أرنولد (وقد توسع معاوية [٦٨٠.٦٦١م]، [٦٠.٤١هـ] في إلحاق المسيحيين بخدمته، وحذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المالك، وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل، وهو عربي نصراني، كان شاعرًا للبلاط، ومثل القديس يوحنا الدمشقي مستشارًا للخليفة عبد الملك [٧٠٥.٦٨٥م]، [٨٦.٦٥هـ]).[٣]

وليس هذا فحسب، فقد (كان في خدمة الخليفة المعتصم [٨٣٣ – ٨٤٢ م]، [٢٢٧.٢١٨هـ] أخوان مسيحيان بلَغَا منزلة سامية عند أمير المؤمنين، أحدهما يُدْعى سلمويه، ويظهر أنه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة، كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد).[٤]

ولم يَكْتَفِ عضد الدولة في بغداد بأن جعل نصر بن هارون وزيرا، وكان

---

(١) التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، د/محمد عمارة، ص٢٣ بتصرف نهضة مصر، ١٩٩٧م.

(٢) آثرت التركيز على نماذج من كتب غير المسلمين، لأن شهادة الآخر على التسامح والتعددية وقبول الآخر داخل المجتمع المسلم، أوثق في الرد على من ينكرها من المتعصبين الدارسين للإسلام وحضارته.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، توماس أرنولد، ص٦٠

(٤) المرجع السابق نفسه، ص٦٠.

نصرانيا، بل أذن له في عمارة البِيَع والأديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم.(١)

ولقد انتشرت ثقافة قبول الآخر؛ حتى في أخَصِّ الأمور المتعلقة ببناء شخصية الفرد، وهو طلب العلم، فلم يكن اختلاف الدين مانعا من تلقي العلوم بين أصحاب الأديان المختلفة؛ فقد (اختار عبد الملك عالما مسيحيا ... مؤدِّبًا لأخيه عبد العزيز، وقد رافق هذا المعلم تلميذه إلى مصر عندما عُيِّنَ واليا عليها، وجمع من الأموال ما لا يُحصى).(٢)

وإذا اشتهر عالم في فن من العلوم، لم يَجدِ الآخرون غضاضة في التلمذة له؛ فقد (كان حنين بن إسحاق فصيحًا لَسِنًا بارعاً شاعرًا – وهو نصراني – وأقام مدة في البصرة وكان شيخه في العربية الخليل بن أحمد).(٣)

وها هو ابن جزلة، كان طبيبا نصرانيا، وكان يقرأ على أبي علي ابن الوليد المعتزلي ويلازمه، ثم أسلم بعد ذلك.(٤)

إن اختلاف الدين لم يكن، في يوم من الأيام، مانعا من تولي الوظائف العامة، أو التأثير على العلاقات المجتمعية بين أفراد المجتمع.

وقد ورد في كتب التاريخ نماذج تبهر العقول، وهي دليل واضح على مدى ما وصل إليه المجتمع المسلم، من تسامح وتعددية وقبول للآخر؛ حيث (قال خلف ابن

---

(١) راجع: الكامل في التاريخ، أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الشهير بابن الأثير، تحقيق عبد الله القاضي، ج٧، ص٣٨٨، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، توماس أرنولد، ص٦٠، بتصرف واختصار

(٣) راجع: الأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٨٧،

(٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، ج٦، ص٢٦٧، دار صادر، بيروت.

المثنى: كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس، لا يُعرف مثلهم في تضاد أديانهم ونِحَلهم: الخليل بن أحمد سني، والسيد بن محمد الحميري رافضي، وصالح بن عبد القدوس ثنوي، وسفيان ابن مجاشع صفري، وبشار بن برد خليع ماجن، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت يهودي، وابن نطيرا متكلم النصارى، وعمرو ابن أخت المؤيد المجوسي، وروح ابن سنان الحراني صابئي، فيتناشد الجماعة أشعارًا).[1]

وبعد عرض هذه النماذج الرائعة للمجتمع المسلم، والتي أوجدها الإسلام، عن طريق تفاعل أبنائه مع مَن جَاورهم وساكَنَهم، يمكن القول بأن (الإسلام قد استوعب المواريث الثقافية والحضارية السابقة على ظهوره، بل وأحياها وأنقذها من الموات، وفتح الأبواب لأهل الديانات السابقة كي يسهموا في بناء ثقافته، وحضارته التي غدت ثقافتهم وحضارتهم، وتفاعل مع ما لديهم من ثقافات فرعية، وترك بصماته عليها، فاندمجت مواريثهم في الثقافة الإسلامية الجامعة، وتأثرت ثقافتهم الفرعية بثقافة الإسلام).[2]

ومما يساعد على إشاعة روح التسامح بين فصائل المجتمع، هو الحوار، الذي افتقدناه كثيرا في واقعنا، حتى صار البعض يعمل في جزر منفصلة، هذا يتهم ذاك، وذلك يلقي باللوم على الآخرين، لا لشيء، إلا لعدم الاستعداد إلى سماع وجهات النظر المختلفة والتحاور بينها، للخروج بنتائج مثلى يمكن تطبيقها، لضمان استمرارية التفاعل والتواصل بين أبناء المجتمع، والتي كان مظهرا من مظاهر التسامح في التاريخ القريب والبعيد.

---

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د/ عمر عبد السلام تدمري، ج٩، ص٣٨٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.أولى١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢) الهوية الثقافية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة والتحديات، د/ محمد عمارة، ص٦٧٧ بتصرف، مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٤٣٥هـ/ فبراير ٢٠١٤م.

إن التفاعل والتواصل، اللذَين يهدف إليهما التسامح، لا يُشترَط أن يكونا بين حضارتين مختلفتين، بل إنه يتوجه ابتداءً إلى التواصل بين أبناء الفصائل المتعددة داخل الدين الواحد والحضارة الواحدة، ليتم بعد ذلك التفاعل مع الحضارات الأخرى.

والحوار الثقافي بين الذين ينتمون إلى مذاهب متعددة، وتوجهات مختلفة، يؤدي إلى قبول الآخر المذهبي والفكري، ومن ثم قبول الآخر الحضاري.

وما يعيشه أبناء الأمة المسلمة اليوم من انغلاق كل تيار، على نفسه وعدم استعداده لسماع وجهة نظر الآخر المخالف له في الرأي، كل ذلك، قد أدى إلى ضيق الأفق، مع استنفاد طاقات شباب الأمة ومفكريها، واستعلاء نبرة الاتهام للآخر، وانتشار اللهجة العدائية بين أبناء الأمة الواحدة، لمجرد الاختلاف في الرأي، متناسين أن الإسلام – الذي نعمل جميعا باسمه – قد استوعب داخل محيطه، ليس تيارات المذاهب الإسلامية فحسب، ولكن أبناء الحضارات الأخرى والأديان الأخرى.

خامسا: الجمع بين الثبات والمرونة

من خصائص النظم الإسلامية، أنها ليست جامدة، بل إنها تراعي امتداد الزمان والمكان، وذلك لأن وقائع الحياة لا تنتهي، وكذلك لابد للنظم الإسلامية التي يسير عليها المجتمع أن تكون ملبية لاحتياجات الإنسان، فجمعت بين القواعد الثابتة وبين ما يمكن الاجتهاد فيه حسب طبيعة كل زمان ومكان.

نعم، هناك قواعد ثابتة لا تتغير باختلاف الزمان والمكان، فقواعد العقائد والعبادات والأخلاق، لا تتبدل ولا تتغير، فتوحيد الله وأركان الإيمان الستة، والعبادات وما تشتمل عليه، لا مجال للاجتهاد فيها من حيث تغيير أصولها أو ادعاء عدم صلاحيتها.

أما القضايا المتغيرة، فإن الإسلام أعطى فرصة للناس كي يحققوا مقاصد الشريعة في ما يعرض لهم من مستجدات، وعليه فإن تشريعات الإسلام قد اشتملت على (جزئيات القضايا الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، من مثل أحكام الأسرة، وقانون

العقوبات المسمى في الفقه الإسلامي بالحدود، وفي اشتمال نفس التشريعات على القواعد الكلية والمبادئ العامة للقضايا المتجددة المتغيرة، لربط الناس بدينهم من جهة، ولإعطاء المجتمع فرصة التقدم في الإطار الإسلامي العام من جهة أخرى).[1]

سادسا: مراعاة الطبيعة الإنسانية

حيث إن الإنسان مكون من جسد وروح، ولكل منهما متطلبات ودوافع ورغبات، فتميزت النظم الإسلامية، برعايتها لطبيعة الإنسان واحتياجاته، فاشتملت في أسسها ومبادئها على ما يحقق فردية الإنسان وما ينظم المجتمع، وأعطته حق التملك الفردي، وهو ما يعبر عنه بالملكية الخاصية، من غير إلحاق بالضرر للمجتمع في الملكية العامة.

وبما أن الطبائع والإمكانات تتفاوت جزئيا، فإن (الإسلام لا يغفل طبيعة الإنسان وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي يرسمه لهم، وفي ضوء هذا النظر الواقعي جعل الإسلام حدا أدنى أو مستوى أدنى من الكمال، لا يجوز الهبوط عنه؛ لأن هذا المستوى ضروري لتكوين شخصية المسلم على نحو معقول، ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عِداد المسلمين، ولأنه وُضع على نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع إلى مستوى الكمال.

إن هذا المستوى الأدنى يتكون من جملة معاني يجب القيام بها وهي المسماة بالفرائض، كما يشمل جملة معان يجب هجرها وهي المسماة بالمحرمات ... ولكن بجانب هذا المستوى الإلزامي الواجب بلوغه على كل مسلم، وضعت الشريعة مستوى آخر أرفع منه وأوسع منه وحببت إلى الناس بلوغ هذا المستوى العالي، فإلزامهم به إرهاق لهم وحرج شديد، والحرج في شرع الإسلام مرفوع؛ لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية، قال تعالى:﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ [الحج: ٧٨] وهذا المستوى

(١) نظرات في نظم الإسلام وثقافته، د/ مصطفى أحمد أبو سمك، ص٤١، مرجع سابق.

العالي يشمل المندوبات التي ترغب الشريعة في القيام بها، والمكروهات التي ترغب الشريعة في ترك المسلم لها.

وقد نتج عن هذه الميزة والخصيصة، واقعيةُ النظم واستمرارها واصطباغ المجتمع المسلم بها، على امتداد تاريخه وتنوع أماكنه.

إن النظم التي وقفت في وجه الفطرة الإنسانية، سرعان ما زالت، وسعى المجتمع في هدمها، أو على الأقل مخالفة تعاليمها، وهذا ما حدث مع النظم اليهودية والمسيحية، فالأولى اهتمت بالمادة على حساب الروح، والثانية أعلت من قيمة الروح فحاربت الجسد ودوافعه ورغباته، ولذلك لم تدم طويلا، لأنها مجافية لفطرة الإنسان، بخلاف النظم الإسلامية حيث راعت كل ذلك.

سابعا: الجمع بين الجزاء الدنيوي والأخروي

تظهر هذه الخصيصة واضحة في سائر جوانب النظم الإسلامية، حيث ترتب سعادة المجتمع على تحقيق ما جاءت به، كذلك الفوز برضوان الله وجنته مرتبط بتحقيق هذه النظم، ومن هنا فقد ضُمِن لهذه النظم الذيوع والانتشار، نظرا لارتباطها بالإيمان بالله، وترتُّبِ الثواب والعقاب على الفعل والترك.

وللإسلام فلسفته الخاصة في الثواب والعقاب؛ إذ أنها بمثابة دافع للقيام بالواجبات والابتعاد عن المحرمات، والأصل في أجزية الإسلام وعقوباته، أنها في الآخرة لا في الدنيا، ولكن مقتضيات الحياة وضرورة استقرار المجتمع وتنظيم علاقات الأفراد على نحو واضح مؤثر وضامن لحقوق الناس، كل ذلك دعا إلى أن يكون الجزاء الأخروي جزاء دنيوي، أي مع العقاب الأخروي عقاب توقعه الدولة في الدنيا على المخالف لأحكام الإسلام. ونطاق الجزاء في الإسلام واسع شامل شمول الإسلام لجميع شؤون الحياة ومن ثم فأجزية الإسلام تتعلق بأمور العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات، فكل مخالفة لهذه الأمور لها جزاؤها في الآخرة وقد يكون لها جزاء في الدنيا أيضاً...

وقد ترتب على هذا الجزاء الأخروي خضوع المسلم لأحكام الشريعة خضوعاً اختيارياً في السر والعلن خوفاً من عقاب الله، وحتى لو استطاع الإفلات من عقاب الدنيا، لأن العقاب الأخروي ينتظره ولا يستطيع الإفلات منه.

المبحث الثاني: أبرز أنواع النظم الإسلامية

مدخـل

يحتاج الناس إلى تنظيم حياتهم بما تشتمل عليه من أنشطة مختلفة يقومون بها، ومن هنا تنوعت النظم الإسلامية لتلبي هذا الاحتياج، ونظرا لاعتمادها المباشر على تعاليم الإسلام بمصدرَيْها القرآن والسنة، والأدلة المعتبرة عند المجتهدين، جاءت هذه النظم شاملة لكافة أوجه النشاط الإنساني، ومراعية لأحواله.

وباستقراء ما كُتِب في مجال النظم الإسلامية، يتبين أن أنواع النظم الإسلامية تنحصر في الآتي:

١. النظام الاجتماعي. ٢. النظام الأخلاقي. ٣. النظام السياسي.
٤. النظام الاقتصادي. ٥. النظام القضائي. ٦. النظام التشريعي.
٧. النظام التربوي. ٨. النظام الإداري.

وقبل أن أتناول أبرز هذه النظم، أود أن أشير إلى مكونات المجتمع الذي تتعلق به هذه النظم.

سمات المجتمع

ما المكونات التي لابد من توافرها؛ ليصح إطلاق وصف (مجتمع) عليها، وما الذي يميز مجتمع ما عن غيره؟

(المجتمع مكان يضم مجموعة من الناس تلتقي في أفكارها ومبادئها، وتسير وفق نظام معين لها، وقد يكون لهذا المجتمع مواريث وثقافات معينة تميزه عن غيره، ومن هنا تتميز المجتمعات عن غيرها).[١]

ولا مانع من إلقاء الضوء على أبرز تعريفات علماء الاجتماع الغربيين، في

(١) أضواء حول الثقافة الإسلامية، د.أحمد عبدالرحيم السايح، ص٤٢ بتصرف، الدار المصرية اللبنانية، ط. أولى١٩٩٣م.

نظرتهم وتعريفهم للمجتمع.

حيث عُرِّف المجتمع عندهم بتعريفات مختلفة تدور حول تغليب الجانب الفردي أو الجانب الاجتماعي أو العلاقة التي تربط أبناء المجتمع بعضهم ببعض:

فذهب "تارد"[١] إلى أن المجتمع جملة أفراد يحاكي بعضهم بعضًا أو يلتقون في صفات مشتركة موروثة من نموذج واحد قديم وهذه هي الذرية الاجتماعية.

وذهب "دور كايم"[٢] إلى أن المجتمع ليس مجرد مجموعة أفراد وإنما هو نسق خاص ذو حقيقة مستقلة وصفات معينة وفي مقدمتها سلطته على أفراده وتميزه عن المجتمعات الأخرى، وهو ظاهرة إنسانية توجد حيث يوجد الإنسان.

وذهب آخرون إلى أن المجتمع جملة علاقات تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتعبر عن مدى التبادل بينهم، والحقيقة أن المجتمع يقوم على أفراده وعلى العلاقات القائمة بينهم ولكن شيء آخر غير هؤلاء الأفراد وتلك العلاقات، ولكل مجتمع ثقافته وعاداته وتقاليده[٣].

ويلاحظ على التعريفات السابقة أنها تنظر إلى المجتمع على أنه تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، يعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة، وذلك

---

(١) جبرييل تارد (١٨٤٣هـ، ١٩٠٤): عالم فرنسي في علمي الاجتماع والإجرام، أوضح مؤلفاته "قوانين المحاكاة"، "الفلسفة الجنائية". الموسوعة العربية الميسرة، إشراف: محمد شفيق غربال، ١/ ٤٧٩، دار الجيل والجمعية المصرية للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

(٢) اميل دور كايم(١٨٥٨–١٩١٧): فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، يُعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آنٍ واحد. معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، ص١٩٠، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

(٣) يراجع: معجم العلوم الاجتماعية: إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، ص٥١٦، تصدير ومراجعة: د/ إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

النوع من التعريفات – كما يرى مالك بن نبي[١] – لا يُعطي أدنى تفسير للوظيفة التاريخية التي تناط بتجمع من هذا القبيل، كما أنه لا يُفسر تنظيمه الداخلي، أمَّا التعريف الذي يرتضيه "ابن نبي" – وهو تعريف جامع – فهو الذي يربط المجتمع بعامل الزمن، لِيُصبح المجتمع عنده هو: "الجماعة التي تغير دائمًا خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير"[٢].

وعليه، فإن "ابن نبي" حدَّد معنى "مجتمع" من الوجهة التاريخية التي تشمل أصول كيانه الاجتماعي، ومن الوجهة التشكيلية التي تتصل ببنائه، ومن الوجهة الوظيفية التي تُحدِّد غايته، بخلاف التعريفات السابقة من علماء الاجتماع الذين يجنحون تارة إلى تغليب الجانب الفردي، وأخرى يُغلِّبون الجانب الاجتماعي، وثالثة ينظرون إليه من زاوية واحدة لا تجمع بين وجهاته التاريخية والتشكيلية والوظيفية.

هذا ويقوم المجتمع على عدد من الأركان، وهي:

١- (الأرض التي غالبًا ما تكون محددة بحدود معينة.

٢- البشر أو السكان الذين يعيشون على الأرض، ويستغلونها في عمليات الإنتاج.

---

(١) مالك بن نبي (١٣٢٣ – ١٣٩٣ هـ = ١٩٠٥ – ١٩٧٣ م): مفكر إسلامي جزائري، ولد بها في مدينة قسنطينة، تخرج مهندسًا ميكانيكيًا في معهد الهندسة العالي بباريز، أقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره، وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، وتولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري (١٩٦٤م) وتوفي ببلده. الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، ج٥، ص٢٦٦، بتصرف، دار العلم للملايين، ط. خامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

(٢) ميلاد مجتمع: مالك بن نبي، ص١٧، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط٨، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٣- الاستمرار في الزمن بحيث يستطيع أفراد المجتمع أن يدخلوا في علاقات تاريخية منظمة، وأن يشتركوا في ثقافة واحدة.

٤- الاكتفاء الذاتي، ورغم أن هذا المفهوم يعتبر صعب التنفيذ في عالمنا المعاصر، إلا أن أحد الشروط الأساسية لإقامة مجتمع أن يكون لديه حد أدنى من الموارد تمكِّن سكانه من أن يعيشوا مكتفين ذاتيًا حتى ولو كان ذلك عند الحد الأدنى)[١].

٥- القانون أو النظام الذي يرتضيه المجتمع وطبيعته.

ومن هنا تتضح العلاقة المباشرة بين المجتمع، وبين النظم التي تحكم العلاقة بين كافة قطاعاته. فإن المجتمع - بهذه السمات التي سبق عرضها - قد تطلب تنوع النظام الذي يحكم علاقاته؛ بما يؤدي مهامه ويحقق أهدافه ورغباته، على المستوى الداخلي والخارجي.

وسأتناول بعضا من هذه النظم وأهم ملامحها، وذلك في المطالب التالية.

(١) علم الاجتماع ودراسة المجتمع: د/ أحمد زايد، ص٢٩، كلية الآداب- جامعة القاهرة، ٢٠١٠، ٢٠١١م.

المطلب الأول: النظام الاجتماعي وأسسه

تعريف النظام الاجتماعي:

يذهب الباحثون في علم الاجتماع إلى تحديد طبيعة النظم الاجتماعية، وبيان تصورها على النحو التالي:

١- النظم الاجتماعية: هي الأنساق المنظمة، الدائمة نسبيا، للتصرفات والاتجاهات والأغراض والأشياء والرموز والمُثُل، التي توجه أغلب نواحي الحياة الاجتماعية.

٢- النظم الاجتماعية تمثل البناء الاجتماعي، والآلة التي تنظم المجتمع الإنساني، وتوجه وتنفذ وجوه النشاط المتعددة، التي يتطلبها تحقيق الحاجات الإنسانية.

وعليه فإن النظام الاجتماعي عبارة عن (مجموعة من نماذج السلوك والعلاقات المتفق عليها، والتي تخضع لمجموعة من القواعد والمعايير الجمعية، والتي توجه حاجات الإنسان الأساسية.[١]

وهناك من يحدد مفهوم النظام الاجتماعي، على أساس ما يشتمل عليه هذا النظام، حيث يعرفه بأنه (مجموعة المبادئ والتشريعات التي تنظم علاقة الرجل بالمرأة، وما يتفرع عن هذه العلاقة من أمور)[٢]

وهذا التعريف يبين بعض القضايا التي يدرسها النظام الاجتماعي.

الفرق بين أنظمة المجتمع والنظام الاجتماعي:

النظام المجتمعي أو أنظمة المجتمع إطار عام يستوعب جميع الأنظمة التي نتحدث عنها؛ حيث يدخل فيها النظام السياسي والاقتصادي والأخلاقي، وما إلى ذلك.

---

(١) أضواء على النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، د/ عبدالرحمن أبو عامر الحماحمي ص٣٣، مكتبة الإيمان، ط. ثالثة ٢٠٠٨م.

(٢) الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، د/ محمد أبو يحي وآخرون، ص٢٨٥

أما النظام الاجتماعي فهو الذي يختص بتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والأسر والمجتمع ككل، تمهيدا لتنظيم العلاقات بين المجتمعات الإنسانية.[١]

أسس النظام الاجتماعي في الإسلام[٢]

يتناول النظام الاجتماعي القضايا المتعلقة ببناء الفرد والأسرة وما يستلزمه بناؤها كالزواج والآثار المترتبة عليه، والحقوق والواجبات بين الزوجين، وحقوق الأطفال، كما يركز على القضايا المتعلقة بالمرأة من حيث مكانتها ودورها في المجتمع، والشبهات المثارة حول مكانتها في الإسلام.

وعلى سبيل الإيضاح، نجد أن النظام الاجتماعي في الإسلام يهتم ببناء الفرد وتقويمه وإصلاحه، وفي هذا المجال نجده قد عَمَد إلى إصلاح الفرد عن طريق الآتي[٣]:

١- **إصلاح الاعتقاد:** فيرشد الفرد إلى حقيقة الألوهية ويجيب عما تكنه النفس من أسئلة حول طبيعة الخلق والوجود والكون وما فيه، وصلتها بخالقها الأعلى، وهذا كله كمدخل أساس يُبنى عليه إصلاح العقل وتوجيهه إلى الحقائق الأساسية والهدف من الوجود، لأن إصلاح الاعتقاد يترتب عليه صلاح الفكر والعمل والعلم.

٢- **إصلاح التفكير،** وما يجب عليه تصوره تجاه الكون وبني الإنسان، فلا يضع الألوهية في مظهر من مظاهر الخلق، كإنس أو حجر أو صنم، بل يدرك حجم ومكانة

---

(١) راجع الفرق بين المعنيين في كتاب: الثقافة الإسلامية، د/ عزمي طه سيد وآخرون ص٣٠٩، الشركة العربية المتحدة، ط. تاسعة ٢٠٠٨م.

(٢) أردت بالحديث عن أسس كل نظام أن أبين المفردات والقضايا التي يتناولها كل نظام، فكل مادة علمية، أو مقرر دراسي، له قضايا يجليها ومسائل تحدد موضوعه.

(٣) راجع هذه الأصول في كتاب: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ص٤٥. ٩٦، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط. ثانية، وهذا الشرح الموجز من تصور الباحث.

كل شيء في الكون، ومن ثَمّ لا ينقل الأشياء من دائرة إلى دائرة أخرى، وبالتالي يسعى في الأرض على بينة، لا يخاف من الأشياء، لأن لها خالقا ومالكا أعلى، فهي لا تؤثر بذاتها.

ويدرك – كذلك – حدود وإمكانات العقل والمجالات التي أُمِر بالتفكر فيها والبحث عنها، فلا يبدد طاقات العقل والفكر في البحث عن عالم الغيب أو ما وراء المادة، بل يكفيه أن يثق فيما أتته به عقيدته التي أذعن لها وتمسك بها.

٣- **إصلاح العمل:** وهذا نتيجة طبيعية لإصلاح الاعتقاد والفكر، فالعقائد والأفكار مخزون قلبي، لا يطلع عليه إلا الله، والذي يترجم هذه العقيدة وذلك الفكر هو طريقة العمل ومظاهره.

٤- **إيجاد الوازع النفساني:** الذي يراقب العمل من داخله، لاستشعاره بعلم الله لخفايا ومكنونات النفوس، وسلطة هذا الوازع دائمة ملازمة للفرد المسلم، ولذلك فإن إيجاد هذا الوازع ضمان لاستمرارية وإتقان وإخلاص العمل وصلاحه.

٥- **الحث على اكتساب العلم،** إذ الوقوف على النافع والضار من الأشياء واكتساب الوسائل المعينة على تحقيق أهداف الوجود الإنساني، لا يتأتى إلا بمداومة العلم والبحث عنه وطلبه، مع ارتباط هذا العلم بالأخلاق حتى لا يضل أو يزيغ عن مهامه الأساسية في تمكين الإنسان وعمارته للأرض بمنهج الله ﷻ.

٦- **تعميم الدعوة إلى الإصلاح الفردي،** حيث لا يقتصر هذا الإصلاح على فئة دون أخرى، بل إن قطاعات المجتمع المسلم يتوجه إليها هذا الإصلاح بما يتلاءم مع طبيعة ووظيفة كل فرد فيها، ولذلك ترى الفرد المسلم – بل والمجتمع بأكمله – مخاطبا بوظيفة اجتماعية مهمة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

أصول النظام الاجتماعي التي يقوم عليها المجتمع المسلم:

يعتمد النظام الاجتماعي في الإسلام على نظرة خاصة ورؤية جامعة ينطلق منها في بناء المجتمع، ومن هذه الأصول:(١)

١- احترام شخصية الإنسان وتكريمه.

٢- اعتبار العقيدة أساسا للروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم، وما يتفرع عنها من أنظمة ومعاملات.

٣- المساواة بين أفراد المجتمع الإنساني.

٤- مقياس التفاضل في المجتمع الإسلامي هو العمل والتقوى.

٥- مجتمع أخلاقي متعاون.

٦- التوازن والتكامل بين متطلبات الفرد والجماعة.

٧- اعتبار الأسرة هي القاعدة الأساس في البناء الاجتماعي.

القضايا التي يتناولها النظام الاجتماعي بالدراسة:

يهتم النظام الاجتماعي ببناء الفرد والأسرة والمجتمع، وتوضيح العلاقة بين أفراده، كما يركز على طبيعة العلاقة بين المرأة والرجل، ومن المسائل التي يتناولها:(٢)

١-(مفهوم النظام الاجتماعي، وضرورة الاجتماع البشري، أسس النظام الاجتماعي في الإسلام، الفرد والمجتمع في الإسلام والنظم الوضعية [الحقوق الواجبات، العلاقات بين الفرد والمجتمع).

٢- الأسرة، تعريفها، مكانتها شرعا وواقعا، أسس بنائها، وظيفتها، الحقوق والواجبات الأسرية.

---

(١) راجع: النظام الاجتماعي في الإسلام، السيد هاشم الموسوي، ص٣٩.٤٥، دار الصفوة، بيروت، ط. أولى١٩٩٢م.

(٢) راجع: الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، د/ عبد الله إبراهيم الطريقي، د/ عبد الرحمن الزنيدي وآخرون ، ص٧٥،٧٦، مرجع سابق.

٣- كما يتناول دراسة القضايا المتعلقة بالمرأة، من حيث طبيعتها والفرق بينها وبين الرجل، ومكانتها، ووظيفتها، وأهم القضايا المثارة حولها، وموقف الإسلام من التكامل والتماثل والتفاضل بينها وبين الرجل، وأهم الشبهات المثارة حول نظام الأسرة في الإسلام ومناقشتها.

المطلب الثاني: النظام الاقتصادي وأسسه

مفهوم النظام الاقتصادي

تتنوع المفاهيم المتعلقة بالاقتصاد في الواقع المعاصر، وعليه فـ(إن المراد بالاقتصاد في الفكر المعاصر، هو ذلك العلم الذي يحكم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تنشأ بين أفراد المجتمع، من خلال إنتاج السلع وتوزيعها وتقديم الخدمات، إشباعًا لحاجات الإنسان.

وعلى هذا يكون إشباع حاجات الإنسان المادية هو هدف الاقتصاد بمفهومه المعاصر).[١]

ولقد عرّف المختصون النظام الاقتصادي باعتباره علما مستقلا له قواعده، بحسب غايته وأهدافه، فقال عنه الدكتور محمد شوقي الفنجري – وهو من المتخصصين في الاقتصاد الإسلامي – (العلم الذي يوجه النشاط الاقتصادي وينظمه وفقا لأصول الإسلام ومبادئه).[٢]

ومن الأهمية بمكان أن يعرف النظام الاقتصادي في الإسلام بحسب حقيقته وجوهره، وعليه فهو(مجموعة الأحكام والسياسات الشرعية التي يقوم عليها المال وتصرف الإنسان فيه).[٣]

قواعد النظام الاقتصادي في الإسلام:

يقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على مجموعة من الأسس، تجعله متميزا في

---

(١) الإسلام والاقتصاد، د/ عبد الهادي علي النجار، ص١٠، عالم المعرفة، الكويت، عدد٦٣، مارس ١٩٨٣م.

(٢) المذهب الاقتصادي في الإسلام، د/ محمد شوقي الفنجري، ص٣٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ عمر بن فيحان المرزوقي وآخرون، ص ١٣، مكتبة الرشد، ط. ثانية ٢٠٠٦م.

طبيعته ووسائله وأهدافه، ومن هذه القواعد التي يرتكز عليها:

القاعدة الأولى: ارتباطه بالعقيدة (التوحيد).

القاعدة الثانية: ارتباطه بالأخلاق.

القاعدة الثالثة: قاعدة الثواب والعقاب.

القاعدة الرابعة: قاعدة الحلال والحرام.

وعند إلقاء الضوء على هذه القواعد يتبين أثرها وصلتها الوثيقة بالنظام الاقتصادي.

فإذا تأملنا الارتباط الوثيق بين العقيدة والاقتصاد في الإسلام، نجد أن المسلم الحق يعتمد أساسا على خالقه ورازقه في زيادة الموارد واستغلال الإمكانات المتاحة التي أودعها الله ﷻ أرضَه وكونه، وما فيه من خيرات، ويرى – المسلم – أن التزامه بأوامر الله ﷻ سبب للمزيد من عطاء الله ورزقه (مصادر الإنتاج).

اقرأ قول الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] فالتقوى سبب للاستفادة القصوى من خيرات الله ونعمه.

وإذا كانت التقوى تعني في أبسط حدودها الالتزام بالقواعد الربانية، أمرا ونهيا، في شتى المجالات، فإن ذلك مما يحفظ الموارد الاقتصادية ويضمن توزيعها بطريقة عادلة، فلا تمتنع الحقوق عن أصحابها، ولا يبدد أحد هذه المصادر والموارد وفق رغباته وأهوائه، لأنه محكوم بأوامر الله التي تأمره أن لا يعتدي على المال بالتلف أو بالإفساد في البر والبحر، أو أن يحتكر القوت والإنتاج عمن يحتاجه.

وعند مقارنة هذه القواعد بغيرها من سائر النظم نجد أن النظم الاقتصادية القائمة، سواء تمثلت في الرأسمالية أو الاشتراكية، ... قد فَصَلت الاقتصاد عن هذه المعاني فاعتبرته وسيلة للربح المادي، ولو على حساب الضعفاء والفقراء، وانتهجوا في ذلك سياسة تجويع المحتاجين واستغلالهم لتحقيق أغراضهم الدنيئة، والتي لا يراعون فيها

إنسانية الإنسان، ولا كرامته.[1]

وفيما يلي بيان لهذه القواعد التي يرتكز عليها النظام الاقتصادي.

أولا: الأسس العقدية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي[2]

١-**الاستخلاف:** بمعنى أن المال في الحقيقة مِلك لله تعالى والإنسان مسْتخلَف فيه.

٢-**التسخير:** فلولا تذليل الله تعالى الأرض وتهيئتها للإنسان ما استطاع أن يتفاعل معها

٣-**الانتفاع:** أي أن المال مقصود منه التداول والانتقال، وليس الاكتناز والحبس.

٤-**الوسائلية:** اعتباره وسيلة لحفظ الكليات الخمس التي اعتنت الشريعة بحفظها، وهي: (النفس والعقل والدين والعرض والمال)

٥-**عمومية الاستخلاف:** أي الاستخلاف في الأرض وعمارتها.

٦-**المسؤولية:** فالإنسان مسؤول عن أنشطته في اكتساب المال وإنفاقه والأثر الناتج عن معاملاته في هذا السياق.

وهذا يعني أن الله ﷻ أوجد الإنسان في هذه الحياة ليكون خليفة الله في أرضه يعمرها وينشر فيها الخير والصلاح، قال تعالى:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ١٦١]، وقال جل شأنه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وسخر له ما في الكون؛ ليتم له تحقيق مهمة الاستخلاف ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣]، كما أمر الله تعالى

---

(١) للوقوف على نماذج من هذه المآسي التي يصنعها المحتكرون في العالم الغربي، انظر: صناعة الجوع، فرانسيس مور لاپيه، و جوزيف كولينز، ترجمة :أحمد حسان، عالم المعرفة، الكويت، عدد٦٤، أبريل ١٩٨٣م.

(٢) راجع هذه الأسس في: خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ زيد بن محمد الرماني، ص٢٨.٢٦، دعوة الحق، عدد ١٧٥، السنة الخامسة عشرة شهر رجب ١٤١٧هـ

الإنسان بالسير في الأرض، والانتفاع بخيراتها وما أودعه الله فيها ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]، وما ذلك كله – من تسخيرٍ وأمرٍ بالانتفاع – إلا ليتحقق حفظ الضرورات الخمس (النفس والعقل والدين والعرض والمال)، وكل إنسان مسؤول عن أعماله وتصرفاته وأنشطته التي يقوم بها، وما يترتب عليها من آثار وعقود، وهذه المسؤولية أمام مجتمعه وأمام ربه، فلئن أفلت من المحاسبة على أعماله الاقتصادية التي يقوم بها – من المجتمع – فإنه لن ينجوَ من الحساب عليها أمام خالقه ومولاه.

ثانيا: الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي

هناك تلازم وثيق بين الأخلاق والنشاط الاقتصادي، حيث (لا تنفصل النظرية الإسلامية في الاقتصاد عن الجانب الأخلاقي سواء من حيث الوسائل والنظريات أو من حيث المقاصد والأهداف، ولهذا فإن تدعيم المبادئ الأخلاقية يعتبر من أهم المقاصد الشرعية المعترف بها)[١]

ومن هذه الأخلاق:[٢]

١- **التزام الصدق والأمانة وحظر الغش،** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، ويقول النبي ﷺ (من غشنا فليس منا)[٣]

٢- **حسن المطالبة بالدَّين،** قال تعالى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]

---

(١) السابق نفسه ص٢٩.

(٢) راجع هذه الأخلاق في: خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ زيد بن محمد الرماني، ص٢٩ وما بعدها، مرجع سابق.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غشنا فليس منا، عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ١٠١، ج١ ص٦٩ دار الجيل، بيروت، ١٣٣٤هـ

٣- **حسن الوفاء**، يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥]

٤- **الحذر من إلحاق الضرر بالآخرين** (لا ضرر ولا ضرار)[١]

القاعدة الثالثة: الثواب والعقاب[٢]

فالنشاط الاقتصادي جزء من عمل الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

ومعنى ذلك أن ثواب الآخرة – وهو هدف للمسلم يسعى إليه – لا يتنافى مع نشاط الإنسان في الدنيا والاستفادة بها، بل هو في الحقيقة متوقف عليه، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٧٧]، ويقول – عز من قائل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]

رابعا: قاعدة الحلال والحرام

يقول تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فأفعال المكلفين تعتريها الأحكام الشرعية التكليفية الخمسة، الواجب والحرام والمندوب والمباح والمكروه، بحيث يترتب عليها الثواب والعقاب.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب: الأحكام، باب: من بنَى في حقه ما يضرُّ بجاره، عن عبادة بن الصامت برقم (٢٣٤٠) ج ٣، ص٤٣٠ وقال عنه المحقق شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره، دار الرسالة العالمية، ط. أولى ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

(٢) راجع: خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ زيد بن محمد الرماني، ص٣٢ وما بعدها، مرجع سابق.

يقول الدكتور أحمد النجار (وكما تتدخل قاعدة الحلال والحرام في المنع أو الإباحة، كذلك تتدخل في توجيه النشاط الاقتصادي، لأن قاعدة الحلال والحرام تضع في اعتبارها، كذلك، مفهوما خاصا للعائد، فليس العائد منحصرا في كسب مادي وإنما يمتد إلى ما فوق ذلك بكثير، كما تضع في اعتبارها كذلك مفهوما خاصا بالضرر أو الخسارة، فليست الخسارة، في ضوء قاعدة الحلال والحرام، منحصرة في الخسارة المادية، ولكنها تمتد إلى كل ما يصيب المجتمع الإسلامي بالضرر أو يمس العقيدة والأخلاق).[1]

خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام:

إن دراسة النظام الاقتصادي في الإسلام لابد أن تكون في إطار التكامل والترابط بين جميع النظم الإسلامية وفي ضوء الاعتماد المباشر على الأصول التي جاء بها الإسلام، ليتم الطرح والتناول في سياق متتابع متكامل، يستقي الجزئيات في إطار الكليات، ويحدد الوسائل بالنظر إلى الأهداف والغايات.

ومن هنا لزم أن نضع في الاعتبار – عند دراستنا للنظام الاقتصادي – تميزه عن غيره من النظم الاقتصادية الأخرى، لارتباطه بالجانب التعبدي، والرقابة الذاتية التي تأتي من داخل النفس وإيمانها الوثيق بربها.

يقول الدكتور عبد الهادي النجار، عن هذه المميزات التي انفرد بها النظام الاقتصادي في الإسلام: (يعتبر الطابع التعبدي للنشاط الاقتصادي في الإسلام تطبيقا لمبدأ عام، وهو أن عمَل المسلمِ، اقتصاديا كان أو غير ذلك، يمكن أن يصير عبادة يثاب عليها المسلم إذا قصد بعمله وجه الله وابتغى مرضاته، وفي الحديث الشريف عن عامر بن سعد عن سعد بن أبي وقاص أنه أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم

(١) خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ زيد بن محمد الرماني، ص٣٤ نقلا عن كتاب: الأصالة والمعاصرة، د/ أحمد النجار ص١٧

قال: (... ولستَ تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت بها، حتى اللقمة ترفعها إلى فِيّ امرأتك)[1]

وفضلا عن ذلك، فإن النشاط الاقتصادي في الإسلام لا يهدف إلى نفع مادي فقط، كأي نشاط اقتصادي وضعي، وإنما يتخذ من هذا الهدف وسيلة لغاية أخرى هي إعمار الأرض وتهيئتها للحياة الإنسانية؛ تحقيقا لخلافة الإنسان في الأرض، وإيمانا بأن الله سيسأل الإنسان عن هذه الخلافة).[2]

وبِناءً على ما سبق، يتميز النظام الاقتصادي بخصائص نابعة من ارتكازه على القواعد التي سبق ذكرها، ومن هذه الخصائص:

١- كونه جزءا من أنظمة الإسلام المتنوعة، فارتباطه بالإسلام يضفي عليه طابعا تعبديا، وهدفا ساميا، ويجعل الرقابة عليه رقابة ذاتية في المقام الأول.

٢- التوازن في رعاية المصلحة الاقتصادية للفرد والجماعة، فهي لا تجعل الفرد يذوب في الجماعة فيُحرَم من ثمرة جهده وكدحه وعمله، على نحو ما تفعل الاشتراكية، ولا تُغلِّب مصلحة الفرد على حساب المجتمع، فتترك له الحرية في إلحاق الضرر بالمجتمع والاكتساب من الطرق غير المشروعة.

٣- التوازن بين الجانبين المادي والروحي، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]

---

(١) متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، برقم (٤٤٠٩) ج ٥ ص١٧٨، واللفظ له، وصحيح الإمام مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث برقم (١٦٢٨) ج٥ ص ٧١

(٢) الإسلام والاقتصاد، د/ عبد الهادي علي النجار، ص١٦،١٥، عالم المعرفة، الكويت، عدد٦٣، مارس ١٩٨٣م.

٤- ارتباطه بالأخلاق في جميع مراحله وخطواته.[١]

ولو ألقينا الضوء على أهم القضايا التي يتناولها النظام الاقتصادي، نجد أنه يبين الآتي:

١- كوْن الاقتصاد عصب الحياة.

٢- تأثير الاقتصاد في الأوضاع الاجتماعية والسياسية لكل أمة.

٣- كيفية الحصول علي المال بالطرق المشروعة.

٤- الاقتصاد كعامل فعال في استقرار واستقلال الأمة وسيادتها.

٥- النظام الاقتصادي من جهة أهدافه، ومنها:

أ- سد حاجة الإنسان وحاجة عياله.

ب - نفع عباد الله تعالي.

جـ - نفع الحيوانات والطيور.

د- التمتع بنعم الله تعالى شكراً له.

هـ- الابتلاء والاختبار.

و- إعداد القوتين: المعنوية والمادية لعباد الله المجاهدين.[٢]

كذلك يتناول [المال تعريفه وأنواعه في الفقه الإسلامي، الملكية تعريفها أقسامها أسبابها، مفهوم الحرية الاقتصادية وضوابطها في الإسلام، أنواع الملكية، الخاصة والعامة، الثروة، الإنتاج تعريفه عناصره أهدافه ضوابطه أولوياته، الاستهلاك مفهومه ضوابطه، توزيع الدخل والربح التوزيع] وهذا كله في ضوء المقاصد الشرعية.

---

(١) راجع هذه الخصائص في: النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ عمر بن فيحان المرزوقي وآخرون، ص ٦١.٦٧، مكتبة الرشد، ط. ثانية ٢٠٠٦م.

(٢) راجع: الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، د/ محمد أبو يحي وآخرون، ص٣١٢، نقلا عن: اقتصادنا في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو يحي ١٤ .١٧

من قضايا النظام الاقتصادي (الملكية وفلسفتها)

يهتم النظام الاقتصادي بطرح رؤاه وفلسفته الخاصة بالملكية، والبحث عن أحقية المجتمع أو الأفراد في التملك.

ومن هنا اختلفت النظم المعاصرة في نظرتها لطبيعة الملكية، فجعلتها الرأسمالية[1] في يد الأفراد فقط، ولا حق للدولة في تملك وسائل ومصادر الإنتاج مطلقا، بينما ترى الاشتراكية – كرد فعل للنظام الرأسمالي – أنه لا يحق للأفراد التملك، بل الملكية المطلقة للدولة، وللأفراد حق الانتفاع فقط، في إطار الحاجة، وكان من شعار هذا النظام (كلٌّ يعمل على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته).

ويلخص الدكتور مصطفى كمال وصفي قضية الملكية في النظم الحديثة قائلا: (لا شك أن الملكية عنصر من أهم عناصر النظم الإنسانية منذ بدء الخليقة، وبالتالي فهي مشكلة من أهم مشكلات الإنسان مع نفسه ومع الجماعة، ومع الظروف التي يعانيها، ولا نجد مدرسة فلسفية أو اجتماعية إلا وجعلت لهذا العنصر المكانة الأولى في النظم السياسية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية.

وقد اختلفت اتجاهات النظامين الرأسمالي والاشتراكي في النظر إلى الملكية اختلافا شديدا، فالرأسمالية تنظر إليها طبقا لأصولها الفردية – على أنها حق طبيعي مقدس – وتجعلها مطلقة، بينما لم يقيده القانون، ولا تجيز – أي الرأسمالية – تقييدها إلا بقانون من السلطة التشريعية.

فهذا المذهب يرى أن الإنسان كان في حالته الطبيعية الأولى مالكا لكل شيء، فلما عنَّت له الحاجة إلى تكوين المجتمع أبرم عقدا اجتماعيا، قيّد فيه حقوقه وحريته،

---

(١) ورد في تعريف النظام الاقتصادي الرأسمالي بأنه (النظام الاقتصادي الذي يمتلك فيه الأفراد آحادا أو جماعات، الموارد الإنتاجية ملكية خاصة، كما أن لهم الحق في استخدام مواردهم بأية طريقة يرونها مناسبة)، راجع: النظام الاقتصادي في الإسلام، ص٤٧، مجموعة مؤلفين، نقلا عن: النظم الاقتصادية المعاصرة، د.محمد حامد.

ومنها حق الملكية.

ولا يجوز عندهم إضافة قيود جديدة على هذا الحق، إلا بالإرادة العامة، وذلك بقانون تصدره السلطة التشريعية المنوطة بمجلس شعبي منتخب.

وأما الاشتراكية فترى أن الملكية الخاصة جريمة، وهي متحصلة من تراكم فائض قيمة العمل، أي الفائض الذي يختلسه الرأسمالي من القيمة الحقيقية للسلعة، والأجر الذي يدفعه فعلا للعامل.(١)

المبادئ العامة للنظام الرأسمالي في نظرته للملكية

يمكن إرجاع الخطوط العريضة للنظام الرأسمالي إلى أركان أساسية يتألف منها كيانه العضوي الخاص، والذي يميزه عن النظم والكيانات المذهبية الأخرى وهذهِ الأركان هي:

أولاً: الاعتماد على مبدأ الملكية الخاصة بشكل غير محدد فبينما القاعدة العامة في المذهب الماركسي هي الملكية العامة التي لا يجوز الخروج منها إلا بصورة استثنائية، تنعكس الصورة في المذهب الرأسمالي تماماً، فالملكية الخاصة في هذا المذهب هي القاعدة العامة التي تمتد إلى كل المجالات وميادين الثروة المنوعة، ولا يمكن الخروج منها إلا بحكم ظروف استثنائية، تضطر أحياناً إلى تأميم هذا المشروع أو ذاك، وجعله ملكاً للدولة، فما لم تبرهن التجربة الاجتماعية على ضرورة تأميم

أي مشروع، تبقى الملكية الخاصة هي القاعدة النافذة المفعول، ومن هذا المنطلق فإن الرأسمالية تؤمن بحرية التملك.

ثانياً: بعد الأخذ بمبدأ الملكية الخاصة، يكون المجال مفتوحاً لكل فرد في استغلال ملكيته وفق النظرة التي يراها مناسبة، وهذا الاستغلال يسمح له بتنمية ثروته بمختلف الوسائل والطرق التي يتمكن منها، فإن كان يمتلك مصنعاً لإنتاج سلعة ما، فله أن يستغله

---

(١) مصنفة النظم الإسلامية الدستورية والدولية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، د/ مصطفى كمال وصفي، ص٦٢٩، ٦٣٠مكتبة وهبة، ط. أولى ١٩٧٧م

بنفسه في أي وجه، وله أن يؤجره للغير ولفترة محدودة، وضمن الشروط التي يراها، كما له أن يتملك المصنع دون إنتاج، أي بدون استغلال.

وهذهِ الحرية الرأسمالية التي يمنحها المذهب الرأسمالي للمالك تحفز الفرد على أن تجعله هو العامل الوحيد الذي يُسير العملية الاقتصادية، فهم يبررون ذلك، بأن الفرد هو الأعرف والأقدر على اكتسابها.

ثالثاً: وبعد الأخذ بمبدأ حرية الاستغلال، يُصار إلى مبدأ حرية الاستهلاك، فلكل شخص وفق - النظرة الرأسمالية - الحرية في الإنفاق من ماله كما يشاء على حاجته ورغباته، وهو الذي يختار نوع السلع التي يستهلكها، ولا يمنع عن ذلك قيام الدولة أحياناً بمنع استهلاك بعض السلع، لاعتبارات تتعلق بالمصلحة العامة، كاستهلاك المخدرات ومنع تناول الخمور، كما حدث في الولايات المتحدة بين عامي ١٩١٩: ١٩٣٠م.

وهذهِ الأسس الثلاثة التي يمكن تلخيصها في حُريات ثلاث، هي(حرية التملك وحرية الاستغلال وحرية الاستهلاك) والتي يتبين للناظر فيها أن ملخصها يكمن في نسف دور القيم الأخلاقية، فللفرد حرية فيما يستطيع تملكه واحتكاره وبيعه والمراباة فيه، وللفرد كذلك حرية الاستغلال والاستهلاك في شتى المجالات ولا دخل لمعايير وضوابط الدين.[١]

وأما عن الوصف العام للملكية في الإسلام، فإن المتأمل للنصوص الشرعية يجد ما يلي:

١- المالك الحقيقي للسماء والأرض، والكون وما فيه ومَن فيه، هو الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٢٠]

٢- استخلف الله تعالى بني آدم في الكون استخلافا عاما، أي جعل لهم سلطانا

(١) الملكيات الثلاث دراسة عن الملكية العامة والملكية الخاصة وملكية الدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي، د .إبراهيم عبد اللطيف إبراهيم العبيدي، ص٩٤.٩٨ دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي، ط. أولى٢٠٠٩ - م

على ما فيه وسخره لهم، ومنحهم من القُوى العقلية والجسمية ما يمكّنهم من الانتفاع به واكتشاف أسراره وقوانينه، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، وقال عز من قائل:﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]

٣- أن الله تعالى قد منح الأفراد حق التملك نتيجة سعيهم وكسبهم، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [النساء: ٣٢]

وبهذا يتبين لنا – كما يقول الأستاذ المبارك – أن الملكية في الإسلام يجتمع فيها ثلاثة حقوق: حق الله، وحق الجماعة وحق الفرد.

كما يتبن أيضا أنه لا تناقض ولا اختلاف بين هذه العناصر، ذلك أن ملكية الله تعالى للمال هي الملكية الأصيلة، أما ملكية البشر للمال فهي ملكية واقعية.

والحكمة من إضافة المال إلى الله تبارك وتعالى مرة، وإلى الجماعة مرة أخرى، ثم إضافته إلى الأفراد مرة ثالثة؛ إنما هو لإشعار الناس وتوجيههم إلى أن ملكية الله تعالى مطلقة لا ينازعه فيها أحد، في حين أن ملكية البشر منضبطة بالأهداف الشرعية، وأن منح الناس حق التملك، منوط بمسؤوليتهم عما خوّله الله تبارك وتعالى من نِعَم وأموال، وفي الحديث: عَنْ أَبِى بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ)[١]

وقد قيد الشرع الإسلامي الملكية بقيود شتى منها ما يتصل بطرق اكتسابها، ومنها ما يتعلق باستعمالها.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، برقم٢٤١٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح، ج٤ ص٢١٧. دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٩٩٦: ١٩٩٨م

أما من حيث سبل اكتسابها، فقد نظمها الشرع وجعل لها أبوابا منها، العقود الشرعية، وإحراز المباحات كالصيد والإرث والوصية والتعويض، ومنَعَ الكسب غير المشروع.

وأما من حيث استعمالها فقد قيد الشرعُ المالكَ بعدم التبذير، والبعد عن الترف، وكنز المال، والاحتكار، والاستغلال والإضرار بالآخرين، وفوق ذلك فقد رتب الشرع على المالك عددا من الالتزامات المالية، كالنفقة والزكاة، وما يلي ذلك من ضرائب أخرى يمكن إدراجها[١] تحت قول النبي ﷺ: « إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ»[٢]

الملكية العامة في النظام الاقتصادي الإسلامي

الملكية العامة: هي ملكية الأموال التي تعود إلى الدولة الإسلامية بوصفها القائمة بأمر الدين والدنيا، وهي تخص أبناء الأمة قاطبة بغض النظر عن الدين والقومية، ويدخل فيها المباحات العامة من الثروات الطبيعية التي يجوز لجميع أفراد المجتمع حق التمتع بخيراتها دون تمييز.

وعلى ذلك: فالملكية العامة تشمل مصادر الثروة التي تعتبر ضرورية لحياة الجماعة والأمة.[٣]

فالأشياء والأموال التي تمنع أو تحول طبيعتها دون أن تكون محلاً للملكية الخاصة تعتبر من الملكية العامة كالأنهار، والمراعي وما إلى ذلك مما وُجِدَ بإيجاد الله

---

(١) الثقافة الإسلامية، د/ عزمي طه سيد وآخرون، ص٣٦٨. ٣٧٠، الشركة العربية المتحدة، ط. تاسعة ٢٠٠٨م

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع، من حديث فاطمة بنت قيس، باب مَا جَاءَ أَنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ، برقم (٦٦٠) وقال: هذا حديث إسناده ليس بذاك ج٢ ص٤٠ مرجع سابق.

(٣) الملكيات الثلاث دراسة عن الملكية العامة والملكية الخاصة وملكية الدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي، د .إبراهيم عبد اللطيف إبراهيم العبيدي، ص٥١، مرجع سابق.

له[١] من غير معالجة بشرية أو بذل مؤنة وتهيئة في إصلاحه.

إقرار الملكية العامة:

لم تهمل الشريعة الإسلامية حقوق المجتمع والجماعات باختلاف أنواعهم وحاجاتهم، فقد أذنت للأفراد أن يتملكوا أعياناً لا يلحق تملكها إضراراً بالعامة، ومنعت من تملك ما في تملُّكِه إلحاق الأضرار بالمجتمع عمومًا، فهي حينما أَقَرَّت الملكية الخاصة، أقرت في مقابلها الملكية العامة، وهي أن تكون ملكًا لعموم الناس دون النظر إلى الأفراد، فلا يحق للفرد، أو المجموعة من الأفراد، أن يحجزوا منافعها عن الآخرين بحال، بل هي مشاع بين أفراد المجتمع عمومًا، على ما تقتضيه المصلحة العامة، كالطرق، والأنهار، والمراعي، وغيرها .. وقد تضافرت الأدلة على إقرار الملكية العامة ومن ذلك ما يلي:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: " المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء، والكلأ، والنار..." [٢] ففي هذا الحديث يقرر النبي ﷺ مبدأ الملكية العامة، حيث جعل ﷺ الحق لعموم الناس في الانتفاع بالماء والكلأ والنار.

٢- عن الصعب بن جثامة ﷺ أن النبي ﷺ قال" لا حِمى إلا لله ورسوله"[٣] فهذا مما يدل على إقرار الشريعة الإسلامية للملكية العامة.[٤]

---

(١) الخراج، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ت (١٨٣) هـ، ص ٩٦ وما بعدها، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث برقم (٢٤٧٢) ج٣ ص ٥٢٨ وقال المحقق: شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره. مرجع سابق.

(٣) صحيح الإمام البخاري، كتاب المساقاة، باب لا حمى إلا لله ولرسوله ﷺ، برقم ٢٣٧٠، ج ٣ ص ١١٣ مرجع سابق.

(٤) النظام الاقتصادي في الإسلام، عمر فيحان المرزوقي وآخرون، ص٧٥، ٧٦، مرجع سابق.

أهداف الملكية العامة في النظام الاقتصادي الإسلامي

لم تكن الملكية العامة استخداما للسلطة المطلقة للدولة في امتلاك ما تشاء من عدمه، وإنما مراعاة لحاجات الناس، وتعاملا مع الواقع برزت عدة مطالب ومسؤوليات تتحملها الدولة القائمة تجاه مواطنيها. وانطلاقا من التوازن الذي يحكم النظام الاقتصادي في الإسلام، فإن للملكية العامة عدة أهداف ومن أهمها:(١)

١ – **إشراك جميع الأفراد في الثروة:** وخير مثال على ذلك، فِعْلُ عمر بن الخطاب ﷺ في عدم توزيع الأراضي المفتوحة بين الجند وتركها في أيدي أصحابها، رغم معارضة بعض الصحابة الكرام له، فهذه الأراضي المفتوحة تمثل ثروة وطنية، وملكاً عاماً لجميع أفراد المجتمع، ولا يمكن أن تنتقل ملكيتها إلى الأفراد ومن بعدهم إلى ورثتهم، إذ ستتركز الثروة في أيدي فئة قليلة من المجتمع دون باقي أفراده، والله تعالى يقول: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]

٢ – **تأمين نفقات الدولة:** إذ لابد للدولة من إيرادات ثابتة، تغطي بها نفقاتها، فكان وقف الأراضي المفتوحة على الملكية العامة ضرورة كبيرة كي تتمكن من حماية الثغور والحدود والدفاع عن البلاد.

٣– إشراك الناس في الحاجات الضرورية (مقومات الحياة الضرورية) وهي الحاجات التي تقوم عليها حياة البشر ؛ حيث يقول النبي ﷺ: (الناس شركاء في ثلاث...)، فقد أباحها الرسول عليه الصلاة والسلام لأن احتكارها أو احتكار واحدة منها يعني إلحاق الضرر بالمجتمع وهذه الأشياء وأمثالها تُعدُّ من ضروريات حياة الإنسان، والضرورات تختلف بين الأزمنة والعصور.

٤– ترغيب الناس في القيام بالأعمال الخيرية وتشجيعهم على حب الآخرين وحثهم على الإيثار، وذلك يتمثل في الوقف الخيري الذي يعتبر كذلك من الملكية العامة.

---

(١) الملكيات الثلاث دراسة عن الملكية العامة والملكية الخاصة وملكية الدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي، د .إبراهيم عبد اللطيف إبراهيم العبيدي، ص٧٣، ٧٤، مرجع سابق.

المطلب الثالث: النظام السياسي وأسسه

في البداية أود أن ألقي الضوء على حقيقة مهمة، وهي أن (السياسة في الإسلام تقوم على العدل والمساواة والحرية والإخاء، وقد عمل الإسلام جاهداً في تحقيق الرفاهية الشاملة لجميع الأمم والشعوب من بني البشر، حتى قضى على كل غبن وظلم وانحراف يصيب الناس في حياتهم، فرفع مستوى حياتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، ووضع الحدود الكفيلة برعاية مصالح الناس وتلبية حاجاتهم في مختلف العصور والبلدان).[١]

تعريفات "السياسة"

ورد في لسان العرب في معنى "السياسة" أنها: (القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه، والسياسةُ فعل السائس، يُقال: هو يَسُوسُ الدوابَّ إِذا قام عليها وراضَها) [٢]

أما في معناها الاصطلاحي، فتتنوع تعريفات السياسة نظرا لما تُضاف إليه، فتارة تكون مجردة، وتارة تضاف إلى(النظام) لتصبح (النظام السياسي)، وأخرى إلى (السياسة الشرعية)، وهذا بيان لكل هذه الأنواع الثلاثة من الاعتبارات:

١- السياسة في الاصطلاح هي (علم الدولة، التي تبحث عن التنظيمات البشرية، وعن تكوين الأحداث السياسية، وعن تنظيم الحكومات، وفي فعالية الحكومة التي لها صلة بتشريع القوانين وتنفيذها وفي علاقتها بالدول الأخرى، وبيان مدى العلاقات القائمة بين الشعب والدولة)[٣]

---

(١) النظم الإسلامية، د/ حسين الحاج حسن، ص٤٣، بتصرف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. أولى ١٩٨٧م

(٢) لسان العرب، لابن منظور الأفريقي ج ٦ ص١٠٧ مادة (سَوَس) مرجع سابق.

(٣) النظام السياسي في الإسلام، باقر شريف القرشي، ص٣٩ دار التعارف للمطبوعات، سوريا، ط. رابعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م

٢- **النظام السياسي في الاصطلاح:** (إما أن يطلق على كل ما يتعلق بسياسة الدولة ونظام الحكم فيها، وإما أن يطلق على جانب الحكم فيها، على اعتبار أن نظام الحكم يشمل النظام السياسي والنظام الإداري، والنظام المالي، والنظام القضائي، ويتناول ألوانا أخرى من النظم والأحكام والقوانين، التي لا يمكن أن يتصور نظام الحكم إلا بها).[١]

٣- **السياسة الشرعية،** عرفها ابن عقيل بقوله: (السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلي الصلاح، وأبعد من الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي).[٢]

وعرفها الشيخ عبد الوهاب خلّاف، قائلا: (هي تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار، مما لا يتعدى حدود الشريعة وأصولها الكلية، وإن لم يتفق وأقوال الأئمة المجتهدين).[٣]

ثم تناول الشيخ عبد الوهاب خلاف مسائل وموضوع وغاية علم السياسة الشرعية، فذكر أنه (علم يُبحث فيه عما تُدبَّر به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الإسلام، وإن لم يقم على كل تدبير دليل خاص، وموضوعه: النظم والقوانين التي تتطلبها شؤون الدولة من حيث مطابقتها لأصول الدين وتحقيقها مصالح الناس وحاجاتهم، وغايته: الوصول إلي تدبير شؤون الدولة بنظم من دينها، والإبانة عن كفاية الإسلام بالسياسة العادلة، وتقبُّلِه رعايةَ مصالح الناس في مختلف العصور والبلدان).[٤]

---

(١) النظام السياسي في الإسلام، د/ عبد العزيز الخياط، ص٢١، دار السلام، القاهرة، ط. أولى ١٩٩٩م.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ص١٧، مطبعة المدني – القاهرة.

(٣) السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف، ص١٤، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

(٤) المرجع السابق نفسه ص٤،٥

الوظائف العامة المميزة للحكومة الإسلامية:

للحكومة في الإسلام وظائف متنوعة تسعى لإيجادها بين الناس جميعا، ومن هذه المهام:

١- إقامة العدل.

٢- المساواة في المجالات المتنوعة: المساواة الاجتماعية - المساواة أمام القانون - المساواة في التوظيف. ٣ - الأخوة.

٤ - الحرية. ٥ - إلغاء التمايز بين الناس.(١)

القاعدة العامة التي تبنى عليها السياسة في الإسلام:

الحياة وما فيها من وقائع متجددة، تحتاج إلى تدبير يناسب ما يَعْرِض للناس من مستجدات، ولذلك ارتبطت السياسة مباشرة - كما سبق - بتحقيق مصالح الناس ودفع الضرر عنهم.

ومن هنا اعتمدت السياسة على الاجتهاد، لتحقيق هذه الغايات، فـ(طريق الوصول إلى الأحكام السياسية الشرعية، هو الاجتهاد، وأن الاجتهاد في ذلك يقوم على القواعد العامة الكلية في الشريعة؛ لأن الغرض أن الواقعة محل الاجتهاد لم يرد فيها نص يحكمها، وهذه القواعد كثيرة، منها: رفع الحرج، ونفي الضرر، وتحقيق العدل والمساواة -العدل لأفراد المجتمع- والقضاء على الفساد، وتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ومنها أيضًا: المصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعرف، والاستحسان في بعض أنواعه، وهي كثيرة في الشريعة ولكن أكثرها استخدامًا في استنباط الأحكام السياسية: الأربعة الأخيرة).(٢)

---

(١) راجع تفصيل هذه المهام في: النظم الإسلامية، د/ حسين الحاج حسن، ص٤٥ - ٥٥

(٢) المدخل إلى السياسة الشرعية، د/عبد العال أحمد عطوة، ص١١٣، هدية مجلة الأزهر، شوال ١٤٣٤هـ، ولتفصيل تلك القواعد، انظر الكتاب السابق ص١١٥ - ١٥٠

أهم المسائل التي يتناولها النظام السياسي كعلم

يتناول النظام السياسي عددا من المفردات، ومنها (أهمية النظام السياسي في الشرع والواقع، مقوماته العقدية والدستورية [الحقوق الأساسية، الشورى، البيعة، الطاعة...).

كما يتناول الحديث عن الدولة في الإسلام، من حيث (مفهومها، نشأتها وتطورها، عناصرها، والسلطة، تعريفها (أنواع السلطات، وظائفها)، ويتحدث أيضا عن (الشعب وحقوقه وواجباته) وعن الأرض التي تقوم عليها هذه الدولة، وعن العلاقات الدولية في السلم والحرب.[١]

(١) راجع هذه المكونات في: الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، د/ عبد الله إبراهيم الطريقي، د/ عبد الرحمن الزنيدي وآخرون ، ص٧٦

المطلب الرابع: النظام الأخلاقي وأسسه

الأخلاق: مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس، وفي ضوئها وميزانها يَحْسُن الفعل في نظر الإنسان أو يَقْبُح، ومن ثَم يُقْدِم عليه أو يُحْجِم عنه.

الارتباط الوثيق بين النظام الأخلاقي في الإسلام وبين غيره من سائر النظم:

يمتد النظام الأخلاقي ليتداخل في سائر الأنظمة الأخرى ويظهر في شتى جوانبها، فنراه مرتبطا تارة بالعبادات، بل يترتب ثواب العبادة وتزداد مكانتها بقدر ما تحدثه من أخلاق يتمتع بها مؤديها.

كذلك لا تنفصل الأخلاق وفلسفتها عن المعاملات في الإسلام، ونجدها تستمد أصولها وترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة الإسلامية، فلا يُترك النظام الأخلاقي لاجتهادات الناس وطبائعهم؛ لأنها متفاوتة بل ومتضاربة، وإنما الذي يؤكد ارتباطها وتفاعلها بالمجتمع، التزامها بعقيدة راسخة.(١)

وعليه فالنظم الإسلامية كلها، على اختلاف أنواعها، إنما تنبني على فلسفة أخلاقية راقية، لتؤكد الأواصر بين كل نظام وما يشتمل عليه من المبادئ الأخلاقية القويمة والتي ترتبط في أساسها بالإيمان والضمير اليقظ الذي يربيه هذا الإيمان في نفوس معتنقيه.

أهمية النظام الأخلاقي واعتماده أساسا للإسلام:

يقرر الدكتور محمد عبدالله دراز أن الإنسان يُساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين المجتمعات ولا سلطان الحكومات بكافيتين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تُحْترم فيها الحقوق، وتُؤدَّى الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من

---

(١) راجع مظاهر هذا الارتباط الوثيق بين فلسفة الأخلاق في الإسلام وبين غيرها من النظم الإسلامية الأخرى في كتاب: الثقافة الإسلامية تعريفها، مصادرها، مجالاتها، تحدياتها، د/ مصطفى مسلم، د/ فتحي محمد الزغبي، ص٢٢٠.٢٢٨، إثراء للنشر والتوزيع، ط. أولى٢٠٠٧م

السوط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله إذا اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

كما يرى فضيلته، أنه من الخطأ أن نظن أن نشر الثقافات والعلوم وحدها ضمانا للرخاء والسلام، وعِوَضا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولابد لكي يحسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض.(١)

ذلك الرقيب هو العقيدة والإيمان، حيث تنهل الأخلاق من معين العقيدة، وترتبط بها كي تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل في المجتمع.

السمات العامة للنظام الأخلاقي الواقعي:

تشترك الأنظمة الأخلاقية في سمات محددة – حتى يصح أن توصف بأنها أخلاقية، تساعد الأتباع على الالتزام بها، وبهذا المفهوم يشترط أن يتحقق فيها ثلاث سمات (أحدها: ينظر إلى الطبيعة الإنسانية بعامة، والآخر ينظر إلى واقع الحياة المادي، والثالث: ينظر إلى تدرج الأعمال).(٢)

وتتجلى هذه السمات في الصور الآتية:

١- إمكان العمل: فلا تكليف بما لا يُطاق.

٢- اليسر العملي.

٣- تحديد الواجبات وتدرجها.

وعندما نطبق هذه السمات نجد أن النظام الأخلاقي في الإسلام، لا يغفل هذه الجوانب؛ وإنما أظهرَها وجلّاها أتمَّ وضوحٍ وبيان.

---

(١) راجع: الدين، د/ محمد عبدالله دراز، ص١٠١.٩٨ دار القلم، الكويت، د.ت.

(٢) راجع هذه السمات بتوسع في كتاب: دستور الأخلاق في القرآن، د/محمد عبد الله دراز، ص٩٥.٥٥، مؤسسة الرسالة ط. عاشرة ١٩٨٨م.

ففي جانب إمكانية القيام بهذه التكاليف الأخلاقية نجد قوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[البقرة: ٢٨٦]

وفي الحديث الشريف عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَىْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ).[(١)]

وأخلاق الإسلام جزء من هذا الدين، ينطبق عليها ما ينطبق عليه.

وفي جانب اليسر العملي لهذه التكاليف الأخلاقية[(٢)] نجد قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وأيضا قوله ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]

أسس دراسة النظام الأخلاقي

عند دراسة النظام الأخلاقي في الإسلام، نجد أنه يتناول مجموعة من المسائل والقضايا المتعلقة مباشرة بتجلية أبعاد هذا النظام، مقارنة بالنظم الوضعية ونظرتها للأخلاق.

ومن هذه المفردات التي يشملها النظام الأخلاقي: [(٣)]

(مفهوم الأخلاق، منزلتها في الإسلام مقارنة بالنظم الوضعية، خصائص الأخلاق الإسلامية.

كما يتناول، المعيار الخلقي في الإسلام، وارتكازه على فطرية الشعور الخلقي، والتشريع الإلهي، ومقارنته بالمعيار الخلقي في النظم الوضعية، والذي يقوم على (العقل واللذة والمنفعة، والعرف الاجتماعي).

---

(١) صحيح الإمام البخاري، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر، برقم ٣٩، ج ١ ص١٧، مرجع سابق.

(٢) راجع هذه التيسيرات في آيات القرآن الكريم المتعلقة بتحريم الميتة في سورة المائدة، والآيات الخاصة بالحث على العفو والمسامحة في سورة الشورى.

(٣) راجع: الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، د/ عبد الله الطريقي وآخرون، ص٧٤،٧٥

ويلقي الضوء كذلك، على مصدر الإلزام الخلقي في الإسلام، والذي يرتكز على [الإيمان، ورقابة المجتمع المسلم، سلطة الحاكم المسلم)، مع المقارنة بالنظم الوضعية حيث الارتكاز على (الضمير، المجتمع، القانون).

ومن المسائل التي يتضمنها النظام الأخلاقي، وسائل التربية الأخلاقية، وآثار الأخلاق على الفرد والمجتمع، مع نماذج تطبيقية في الأخلاق من سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم.

المطلب الخامس: النظام التربوي الإسلامي

التعريف اللغوي للتربية

ترجع كلمة التربية في أصلها اللغوي العربي إلي الفعل (ربا) (يربو) أي نما وزاد. وفي التنزيل الحكيم ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج: ٥] أي نمت وزادت لِمَا يتداخلها من الماء والنبات. وتقول ربَّاه بمعنى: نَشَّأَه ونمَّى قواه الجسدية والعقلية والخلقية.(١) وفي التنزيل الحكيم ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ الشعراء: ١٨

التعريف الاصطلاحي: تعتبر كلمة التربية بمفهومها الاصطلاحي من الكلمات الحديثة التي ظهرت في السنوات الأخيرة مرتبطة بحركة التجديد التربوي في البلاد العربية في الربع الثاني من القرن العشرين، ولذلك لا نجد لها استخداما في المصادر العربية القديمة، وما كانت تستخدمه هذه المصادر هي كلمات مثل [التعليم والتأديب والتهذيب]، وهي كلها مرتبطة بالتربية – كما نفهمها اليوم – أوثق الارتباط.(٢)

ومن التعريفات التي تناولت التربية الإسلامية:

التربية الإسلامية: تعني إعداد الإنسان المسلم لحياتي الدنيا والآخرة، إعدادا كاملا، من الناحية الصحية والعقلية والعلمية والاعتقادية والروحية والأخلاقية والاجتماعية والإرادية والإبداعية، في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بيّنها.(٣)

---

(١) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، د/ محمد منير مرسي، ص٥٢، دار المعارف ١٩٨٧م.

(٢) المرجع السابق ص٥٢

(٣) الثقافة الإسلامية، د/ عزمي طه سيد وآخرون، ص٣٨٨، مرجع سابق.

وهذا التعريف يركز – بوضوح – على الجوانب الفردية التي تسعى التربية لإعدادها في الشخص، مع بيان المرجعية التي ترتكز عليها التربية.

ومما عُرِّفت به التربيةُ – أيضا – أنها: (إعداد المرء ليحيا حياة كاملة، ويعيش سعيدا، محبا لوطنه، قوياً في جسمه متكاملاً في خلقه، منظماً في تفكيره، رقيقاً في شعوره، ماهراً في عمله، متعاوناً مع غيره، يُحسِن التعبير بقلمه ولسانه ويجيد العمل بيده).[١]

والمتأمل في هذا التعريف يجد أنه يركز على الأثر الذي تُحدِثُه التربية في الأفراد في شتى الجوانب المميّزة لشخصياتهم، من الناحية العلمية والعقلية والعاطفية والسلوكية.

أهمية التربية

التربية "عملية ضرورية" لتنشئة الفرد وتكوين شخصيته المتزنة السوية المتكاملة، وهي مثل ضرورة التغذية للجسم، فكما أن التغذية تنمي البدن وتحفظ له صحته وسلامته، فإن التربية تحفظ للفرد حياته وتوجهها إلى شاطئ السلامة والاطمئنان والإنتاج، خاصة إذا ما لاحظنا أن فترة الطفولة لدى الوليد البشري طويلة إذا ما قورنت بغيرها لدى مواليد الحيوانات الأخرى، ويتضح فيها عجزه الشديد واعتماده على والديه في احتياجاته إلى مدة طويلة من الزمن، وهذه الخاصية البشرية مهمة وخطيرة للغاية، فهي تُحَمِّل الوالدين – وغيرهما من المربين والمسئولين عن الرعاية التربوية – تبعاتٍ جليلةً في تهذيب "الوليد الناشىء" وتعليمه وتوجيهه.[٢]

كما أن التربية لا تعتنى فقط بالجانب المادي للإنسان، وإنما تجمع إليه الاهتمام بالبناء الروحي والفكري والعقلي، بل إنها في الأساس تنصرف إلى هذا المعنى، ومن هنا تبدو أهميتها جلية، لأن مهمة الإعداد والتكوين والبناء تستلزم جهودا متواصلة،

---

(١) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، د/ عبد الحميد الصيّد الزنتاني ص٢٥ الدار العربية للكتاب، تونس، ط. ثانية ١٩٩٣م.

(٢) راجع: المرجع السابق ص٢٢

ووعيا بالظروف والملابسات المؤثرة في تكوين النشء وإعدادهم.

والتربية الإسلامية تأخذ بيد المربِي لتوقفه على طبيعة كل مرحلة عمرية وما يحتاجه الإنسان في سائر أحواله وأطواره التي يتقلب فيها.

أهداف التربية الإسلامية:

تستهدف التربية الإسلامية – بصفة أساسية – إعداد الإنسان المسلم الصالح، وصلاح هذا الإنسان يتمثل في تحقيق واجب الخلافة في الأرض، وذلك أن يكون عابدا لله تعالى بالمعنى الشامل للعبادة، فيسلم أمره لله، قصدا وقولا وعملا، تطبيقا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]

وقد استنتج الباحثون في مجال علوم التربية الإسلامية جملة من الأهداف التي تحققها التربية الإسلامية:

١- بناء شخصية المسلم بصورة شاملة ومتوازنة، في جميع أبعادها العقلية والجسمية والاجتماعية والنفسية والروحية.

٢- إكساب المسلم التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، بما يساعده على تعميق إيمانه، واستقامة أمره على منهج الله تعالى.

٣- تركيز الإيمان بالله تعالى في نفس الفرد المسلم، عن يقين وتبصر واقتناع، بشكل يحميه من الخرافات والأوهام والبدع، ويجعله قادرا على مواجهة التيارات الفكرية المخالفة.

٤- تحقيق الاطمئنان النفسي والتوازن الشخصي في نفس الفرد المسلم، بما يكفل تفاعله مع المجتمع والانطلاق للعمل، والثقة بالنفس، وإبراز دور العبادة في هذا السياق.

٥- تحقيق ولاء المسلم لدينه واعتزازه به، لكونه المنهج الإلهي الأكمل والأمثل، والنظام الشامل الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة.

٦- تنمية القيم والاتجاهات السليمة في نفس المسلم، تلك القيم والاتجاهات المستمَدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وحفْزه على التحلي بالأخلاق الإسلامية الأصيلة في دائرة علاقته بنفسه وبالآخرين من حوله.

٧- تنمية الوازع الديني في نفس المسلم؛ حتى ينطلق في حياته على بصيرة من أمره، غايته رضوان الله، ومقياسه في عمله الإحسان، والْتزام الحلال.(١)

الفرق بين عمليتي التربية والتعليم

هناك فرق واضح بين عمليتي التربية والتعليم، فالتعليم ليس هو التربية، بل هو جزء منها، وعملية التربية تشمل التعليم وليس العكس، فالتربية هي عملية تنمية متكاملة لكافة قُوَى وملكات الفرد، بمختلف الأساليب والطرق، ليكون سعيدا وعضوا صالحا في مجتمعه، وهي بذلك تشمل جميع جوانب شخصيته: الروحية والعقلية والخلقية والاجتماعية والوجدانية والجمالية والبدنية.

أما عملية التعليم فهي - كجزء من العملية التربوية الكاملة - ترمي أساسا إلى تنمية عقل الفرد وتمكينه من اكتساب المعرفة والمهارات اللازمة لحياته، ودرايته بعلمٍ معين أو فنٍ ما، أو حرفة أو مهنة معينة، ونحو ذلك.(٢)

أساليب التربية الإسلامية

تعتمد التربية الإسلامية على مجموعة من الأساليب المؤثرة التي ينتهجها المربي للتأثير في الشريحة المستهدفة بالتربية.

وهذه الأساليب قد يتأثر بها المتربي تلقائيا، من غير بذل للجهد أو التنبه لها من قِبل المربين، والوسط القائم بالتأثير والتربية.

وتتنوع هذه الأساليب، نظرا لظروف وطبيعة كل فئة مستهدفة بالتربية، فهناك من

---

(١) راجع: الثقافة الإسلامية، د/ عزمي طه سيد وآخرون،، ص٣٨٩، وما بعدها.

(٢) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، د/ عبد الحميد الصيّد الزنتاني، ص٢٥،٢٦

لا يتأثر إلا بالترغيب، وهناك نفوس أخرى يؤثر فيها العقاب، ومن هنا كان التنويع في أساليب التربية لتتلاءم مع طبيعة الأشخاص في كل مرحلة، بدءا بالطفولة وما يستتبعها من مراحل عمرية.

كما أن هذه الأساليب ينبغي النظر إليها والتعامل معها في إطار التكامل والتعاضد والتنوع، وذلك لتغطي أكبر قدر من التوجهات والميول والرغبات، التي تختلف بطبيعة الحال من شخص لآخر، ومن مجال لغيره... وهكذا.

وعند الوقوف على أبرز الأساليب التربوية يتبين أنها:(١)

١- أسلوب القدوة الصالحة.

للقدوة الصالحة أهمية كبرى في تربية الفرد وتنشئته على أساس سليم، خصوصا في الفترة الأولى من حياته حتى مرحلة النضج والبلوغ، فالطفل منذ ولادته يكتسب ألوان السلوك من خلال تقليده ومحاكاته للآخرين، ويتوقف ما يكتسبه الطفل من عادات وسلوكيات مرغوب فيها أو غير ذلك، على نوع القدوة التي تعرض لها في تربيته، بل إن هذا الأثر يشكل وعيه وتصوراته وتصرفاته التي سيتعامل بها فيما بعد مع الوسط الذي يعيش فيه، إلى أن يتجاوز هذه المرحلة العمرية فيكتشف – بناءً على تلك المرحلة السابقة – مدى صلاحية الأسلوب الذي تعرض له من التربية، من عدمه.

وعندما يغيب النموذج القدوة عن وسائط التربية، فإن هذا ينذر بخطر، إذ أن المتربي سيبحث بنفسه – بل وبدافع من فطرته – عن نموذج يحقق له هذه الحاجة إلى التقليد، أيًّا كان نوع هذه القدوة.

٢- الترغيب والترهيب:

يعتبر أسلوب الثواب والعقاب من الأساليب الطبيعية التي تستند إليها التربية في

(١) راجع: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، د/ محمد منير مرسي، ص١٢١ وما بعدها، وقد قمت باقتباس شرح مختصر لها من المرجع نفسه، مع إضافات وزيادة في بعض المواضع.

كل زمان ومكان، وهذا الأسلوب يتمشى مع طبيعة الإنسان حيثما كان، وأيا كان جنسه أو لونه أو عقيدته، فالإنسان يتم التحكم في سلوكه والتغيير فيه بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة التي تترتب على عمله وسلوكه.

والتربية الإسلامية تستخدم أسلوب الترغيب والترهيب لما له من أهمية بالغة في التنشئة الصالحة لأبنائنا، فأسلوب القرآن الكريم في تصوير الجنة ونعيمها والنار وأهوالها وعذابها، إنما هو أسلوب مناسب لطبيعة الإنسان التي تسعى دائما وراء المنفعة وتبتعد ما أمكن عن المضرة، وهكذا يصبح الجزاء من جنس العمل، وهو مبدأ منطقي لا يستطيع أحد أن ينكر أثره.

قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

٣- الموعظة والنصح

يخترق أسلوب الموعظة والنصح أعماق القلوب، لأنه يُشعِر المتلقي بحرص الناصح وشفقته عليه، ومن هنا يكون لكلامه قبول حسن، كما أن هذا الأسلوب يؤتي ثماره عندما يكون النصح صادرا من القلب، لأن ما يصدر من القلب يصل إلى القلب، وفي القرآن الكريم عظات بالغة، وتذكير بالنعم وحث للناس على الْتزام الخير بأسلوب يأسِر الألباب، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]

وفي أسلوب العظة والنصح مجال كبير للمعلمين في توجيه طلابهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وإلى ما فيه رُقيّ مجتمعهم وأمتهم، إلا أنه ينبغي على المعلم أن يكون ذكيا لبقا في نصحه وأن يبتعد عن أسلوب الأمر والنهي المباشر، فإن هذه الطريقة لا تحقق الهدف المنشود منها.

٤- المحاورة والمناقشة.

أسلوب المحاورة والمناقشة والإقناع والاقتناع عن طريق الدليل، وتحليل

المعلومات، أسلوب مهم من أساليب التربية؛ حيث يساعد على تحقيق الهدف من التربية، فعلينا أن نسترشد بهذا الأسلوب في التمييز بين الضار والنافع والصالح والطالح من الآراء والأفكار.

كما يتضمن هذا الأسلوب في التربية الإسلامية ضرورة تعريف الناشئة بالأساس العقلاني والمنطقي لأي قضية مطروحة أمامهم، وألا يرددوا المعلومات ترديدا أعمى دون فهم لمضمونها أو دون إدراك لارتباطها بالواقع الفردي والاجتماعي، كما أن إتاحة الفرصة للمناقشة الجادة البنّاءة التي تحلل أبعاد الموضوع المطروح للمناقشة وتلقي الضوء على جوانبه المختلفة، يدفع إلى مزيد من التقبل السريع للمعلومات المراد نقلها إلى الوسط التربوي للأفراد والمجتمع.

ويؤكد ابن خلدون أن الطريقة الصحيحة في التعليم هي التي تهتم بالفهم والوعي والمناقشة وليس الاقتصار على الحفظ والتلقين فقط، ويشير إلى أن [ملَكَة العلم] إنما تحصل بالمحاورة والمناظرة والمناقشة في موضوعات العلم.

كما أن طريقة التلقين فقط، والاعتماد عليها في جميع المراحل العمرية، يُنشئ أفرادا عقيمي التفكير، وفاقدي أدوات الفهم للعلم والواقع، بما يؤثر على حياة المجتمع إذا استشْرَت وذاعت وانتشرت هذه الطريقة وحدها.

والواقع أن المربين المسلمين قد اهتموا بأسلوب المناظرة والحوار في التدريس، واعتبروه أسلوبا مفضلا مُجديا في التعليم، وفي ذلك نقل الإمام برهان الإسلام الزرنوجي عناية العلماء بهذا[1] وأن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله في الحفظ والتكرار.

(١) انظر: تعليم المتعلم طريق التعلُّم، الإمام برهان الإسلام الزرنوجي، ص٥٢ الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط. أولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

٥- المعرفة النظرية.

يعتبر هذا الأسلوب من أقدم أساليب التربية وأكثرها شيوعا واستخداما في الوسائط التربوية، وهو من الأساليب المهمة التي تقوم عليها التربية الإسلامية؛ حيث إن للعلم والمعرفة مكانة عظيمة في الإسلام، كما أن تاريخ الأمة الإسلامية قد شهد على امتداده حركات علمية تربوية كان لها أثرها في شتى نواحي المجتمع.

والمعرفة النظرية مهمة في ذاتها لأنها تنمي عقل الإنسان وفكره وتساعده على تكوين خلفية ثقافية تمَكِّنه من التعامل مع مجتمعه، وتساعده على القيام بدور المواطنة الصالحة فيه.

وقد تعالت صيحة المربين – في الوقت الحاضر – يتساءلون حول جدوى المعرفة النظرية وانتقدوا التعليم المعاصر؛ لأنه تعليم لفظي نظري يفتقر إلى مغزاه الوظيفي والتطبيقي، وقد ترتب على ذلك انعزال التعليم عن المجتمع ونفور الطلاب في بعض الأحيان عنه.

وهذه المشكلة يمكن التسليم بها في حالة ما إذا كانت التربية تعتمد هذا الأسلوب وحده لتحقيق أهدافها، لكنه لا يعدو أن يكون واحدا من الأساليب المتنوعة التي تتكاتف في إنجاح العملية التربوية.

كما أن التجديد في تلك الأساليب وتكييفها بما يتلاءم مع الواقع وحال المستقبِلِين، هو أمر مهم يتحمله القائمون على العملية التربوية في المجتمع، وما لا يصلح لفئة قد يكون مناسبا لفئة أخرى، كما أن التعميم يؤدي إلى الوقوع في إشكالات معرفية؛ لأن العقول والميول والاستعدادات متفاوتة.

٦- الممارسة العملية

إن مما يؤثر في سلوك الأفراد هو تحويل المعارف النظرية إلى أفعال واقعية تلمس حياتهم وواقعهم الذي يعايشونه.

ومن هنا ينبغي على المربي المسلم أن يهتم بتنمية السلوك العملي الرشيد، وأن

يدرك أن تلاميذه إنما يحسُن تعليمهم إذا هم مارسوا ما تعلموه، من خلال خبرتهم وتجربتهم المباشرة.

كما يجب على المعلم أن يهتم بإظهار الجوانب الوظيفية والتطبيقية لما يتعلمه التلميذ في واقع حياته كفرد، وفي واقع مجتمعه الإسلامي الكبير.

إن الناشئة الصغار لا يمكن أن يتعلموا ألوان السلوك الديني والاجتماعي إلا إذا مارسوها وأصبحت عادة لديهم، وهذا يعني عدم اقتصار المعلم على المعرفة اللفظية؛ وإنما يجب أن يتعدى ذلك ليربط بين الفكر والعمل والنظرية والتطبيق.

ويوم أن تمّ إغفال هذا الأسلوب في التربية، انعكست الآثار السلبية في المجتمع، فلم يعد للمعرفة قيمتها من حيث تقويمها للفرد، لظنه أنها مجرد معلومات متراكمة ومعارف نظرية يتم استدعاؤها عند الاحتياج إليها في امتحان أو مباراة علمية ومناظرة فكرية!!!

ونجد أن المجتمع يمتلك ثروة هائلة من المعارف والفنون التي تهيئه لتجديد واقعه واستشراف مستقبله والنهوض الحضاري واللحاق بركب المتقدمين، ومع هذا كله، تراه يتراجع عن إحراز الأهداف التي يحاول الوصول إليها، وذلك بسبب غياب هذه الفلسفة العملية في التربية على امتداد المراحل العمرية.

٧- التلقين والحفظ

ساد أسلوب التلقين والحفظ في الممارسات التعليمية القديمة، وما زال يمارس حتى الآن، ويرجع ذلك إلى التصور الذي كان يؤمن به المعلمون بالنسبة لعملية التعلم، فقد كان الهدف من التعليم – في نظرهم – حشو عقل التلميذ بالمعلومات عن طريق الحفظ والتلقين، وكأن التحصيل الدراسي غاية في ذاته، وقيمة التلميذ تُقاس بمقدار ما حفظه من معلومات، وتحصل في عقله من معارف، وليست التربية الإسلامية وحيدة زمانها في ذلك وإنما هي ممارسة شاعت في التعليم في مختلف المجتمعات وعلى مرّ العصور والأزمان.

على أن هذه الطريقة قد انتقدها المربون، وقالوا بأن أسلوب المحاورة والمناقشة أكثر ملاءمة للوصول لهدف التربية مباشرة.

وكما ذكرتُ آنفا، فإن أساليب التربية تتكامل فيما بينها، ولا مجال لتفضيل أسلوب على آخر، وتبقى تبعة التطوير والتحوير على عاتق المختصين لبيان الأساليب المناسبة من غيرها في ظل التطور الذي يشهده الواقع.

الخـاتمة

أولا: النتـائج

بعد تلك التطوافة في جنبات النظم الإسلامية، وما تحتله من مكانة في تخصص الثقافة الإسلامية، أسجل عددا من النتائج التي أسفر عنها البحث.

١- ثراء وتنوع النظم الإسلامية وذلك لاستقاء مادتها وحقائقها من مصادر الإسلام المتسمة بالشمول والتنوع.

٢- تمثل النظم الإسلامية العطاء الإسلامي الذي يعتني بتشييد وتنظيم المجتمع وفق توجيهات الشريعة الإسلامية ومبادئها.

٣- مرونة النظم الإسلامية وقابليتها للتطبيق في شؤون المجتمع؛ كونها لا تقف عند آليات جامدة، بل تترك للمجتمع الإبداع في تطبيق تلك النظم وتحقيق أهدافها.

٤- الحاجة الماسة إلى إعادة طرح قضايا الإسلام ونظمه في صورة تناسب اهتمامات الجيل المعاصر، من حيث الاختصار والتركيز في عرض المحتوى.

٥- تضع النظم الإسلامية المجتمع أمام تحدي الأصالة والمعاصرة، في إثبات صلته بهويته، مع الانفتاح على الوسائل المعاصرة التي تحقق مقاصد النظم الإسلامية.

ثانيا: التوصيات

١- ضرورة تذكير الجيل الصاعد بحقيقة دينه، وسماحة نظمه وتشريعاته؛ كي لا تتخطفه الأفكار المنحرفة تحت ستار التقدم والحرية.

٢- العمل الدؤوب لتنقية تراثنا الإسلامي وإبراز نفائسه ومحاسن الإفادة منه.

والحمد لله رب العالمين.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم، كتاب الله الخالد.

١- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط. ثانية.

٢- أضواء حول الثقافة الإسلامية، د/ أحمد عبدالرحيم السايح، الدار المصرية اللبنانية، ط. أولى١٩٩٣م.

٣- أضواء على النظام الاجتماعي والخلقي في الإسلام، د/ عبد الرحمن أبو عامر الحماحمي، مكتبة الإيمان، ط. ثالثة ٢٠٠٨م.

٤- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط. خامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.أولى١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦- تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، د/ أبو زيد شلبي، مكتبة وهبة٢٠١٢م.

٧- تعليم المتعلم طريق التعلُّم، الإمام برهان الإسلام الزرنوجي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط. أولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨- الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا، د/ عبد الله إبراهيم الطريقي، د/ عبد الرحمن الزنيدي وآخرون ، كلية الشريعة، الرياض، ط. أولى ١٤١٧هـ.

٩- الثقافة الإسلامية تعريفها، مصادرها، مجالاتها، تحدياتها، د/ مصطفى مسلم، د/ فتحي محمد الزغبي، إثراء للنشر والتوزيع، ط. أولى٢٠٠٧م.

١٠- الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، د/ محمد أبو يحي وآخرون، دار

المناهج للنشر والتوزيع، الأردن، ط. أولى ٢٠٠١م.
١١- الثقافة الإسلامية، د/ عزمي طه سيد وآخرون، الشركة العربية المتحدة، ط. تاسعة ٢٠٠٨م.
١٢- الجامع الكبير للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ) ، تحقيق د. بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٩٩٦: ١٩٩٨م
١٣- حضارة العرب، د/ غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢م.
١٤- الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ت (١٨٣) هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م
١٥- خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ زيد بن محمد الرماني، ص٢٨.٢٦، دعوة الحق، عدد ١٧٥، السنة الخامسة عشرة شهر رجب ١٤١٧هـ
١٦- دستور الأخلاق في القرآن، د/محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة ط. عاشرة ١٩٨٨م.
١٧- الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، السير توماس أرنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرَيْن، مكتبة النهضة المصرية، د.ت أو رقم طبعة.
١٨- الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د/ محمد عبدالله دراز، دار القلم الكويت.
١٩- سنن ابن ماجه، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط. أولى ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٢٠- السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
٢١- صحيح الإمام البخاري، المسمى: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي

البخاري، دار طوق النجاة، بيروت، ط. أولى ١٤٢٢هـ.
٢٢- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الجيل، بيروت، ١٣٣٤هـ
٢٣- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، مطبعة المدني – القاهرة.
٢٤- علم أصول الفقه، الشيخ عبد الوهاب خلاف، مكتبة الدعوة الإسلامية، ط. ثامنة.
٢٥- علم الاجتماع ودراسة المجتمع: د/ أحمد زايد، كلية الآداب- جامعة القاهرة، ٢٠١٠، ٢٠١١م.
٢٦- علم الاجتماع، د/ علي عبد الواحد وافي، د.ت.
٢٧- فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ
٢٨- الكتاب المقدس.
٢٩- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور دار صادر بيروت، ط. أولى د.ت
٣٠- المدخل إلى السياسة الشرعية، د/عبد العال أحمد عطوة، هدية مجلة الأزهر، شوال ١٤٣٤هـ.
٣١- مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية، د/ إسماعيل علي محمد، دار النداء، تركيا، ط. أولى ٢٠١٤م.
٣٢- المذهب الاقتصادي في الإسلام، د/ محمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م
٣٣- مصنفة النظم الإسلامية الدستورية والدولية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، د/ مصطفى كمال وصفي، مكتبة وهبة، ط. أولى ١٩٧٧م.
٣٤- معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى، ١٩٩٢م.
٣٥- معجم العلوم الاجتماعية، إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، تصدير ومراجعة د/ إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

٣٦- المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية- جمهورية مصر العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٣٧- معجم مقاييس اللغة، شمس الدين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر.
٣٨- الموافقات في أصول الشريعة، الإمام الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق الشيخ: عبد الله دراز.
٣٩- ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط. ثامنة ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
٤٠- النظام الاجتماعي في الإسلام، السيد هاشم الموسوي، دار الصفوة، بيروت، ط. أولى١٩٩٢م.
٤١- النظام الاقتصادي في الإسلام، د/ عمر بن فيحان المرزوقي وآخرون، مكتبة الرشد، ط. ثانية ٢٠٠٦م.
٤٢- النظام السياسي في الإسلام، باقر شريف القرشي، دار التعارف للمطبوعات، سوريا، ط. رابعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
٤٣- النظام السياسي في الإسلام، د/ عبد العزيز الخياط، دار السلام، القاهرة، ط. أولى ١٩٩٩م.
٤٤- نظرات في نظم الإسلام وثقافته، د/ مصطفى أحمد أبو سمك، المؤسسة العربية الحديثة، د.ت.
٤٥- النظم الإسلامية، د/ حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. أولى ١٩٨٧م
٤٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٩١م

فهرس المحتويات

المقدمة ١٢٨١
التمهيد: حاجة المجتمعات الإنسانية إلى النظم ١٢٨٦
المبحث الأول: تحديد المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالنظم الإسلامية ١٢٨٩
المطلب الأول: تعريف النظم الإسلامية وعلاقتها بالتشريع الإسلامي ١٢٨٩
المطلب الثاني: أهداف النظم الإسلامية ١٢٩٣
المطلب الثالث: خصائص النظم الإسلامية ١٢٩٧
المبحث الثاني: أبرز أنواع النظم الإسلامية ١٣١٤
المطلب الأول: النظام الاجتماعي وأسسه ١٣١٨
المطلب الثاني: النظام الاقتصادي وأسسه ١٣٢٣
المطلب الثالث: النظام السياسي وأسسه ١٣٣٨
المطلب الرابع: النظام الأخلاقي وأسسه ١٣٤٢
المطلب الخامس: النظام التربوي الإسلامي ١٣٤٦
الخـاتمة ١٣٥٦
المصادر والمراجع ١٣٥٧
فهرس المحتويات ١٣٦١